مجلة مركز بحوث ودراسات

المدينة المنورة

المملكة العربية السعودية
مركز بحوث ودراسات المدينة المنورة
١٤١٨هـ ١٩٩٧م

العدد الثامن والثلاثون رجب-رمضان ١٤٣٣هـ يونيو - سبتمبر ٢٠١٢م

٣٨

- الخاتم النبوي الشريف معلم من معالم الدولة النبوية - القسم الثاني
- أسماء المدينة النبوية المباركة في ضوء القرآن الكريم والسنة المطهرة
- الشيخ عبد الله بن محمد بن عبد الوهاب وجهوده في الدولة السعودية الأولى
- يثرب بين الحديث النبوي والشعر

الموقف من الوطن
من خلال المادة التاريخية في القرآن وفي السنة والسيرة
ومن خلال التعاليم الشرعية والتطبيقات التاريخية

د. علي بن عائش المزيني
أستاذ في قسم التاريخ
كلية الدعوة ، الجامعة الإسلامية

مقدمة في أسباب الكتابة في الموضوع وخطة السير فيه :

من القضايا التي تشهد حراكاً علمياً ، وتجاذباً فكرياً في مجتمعنا الإسلامي المعاصر قضية الوطن ؛ مفهومه ، والموقف منه ، وما له وما عليه .

ولما كانت الجامعات جزءاً من المجتمع الذي يشهد هذا الحراك فمن الطبيعي أن تكون قضاياه ضمن الاهتمامات البحثية لهذه المؤسسات العلمية ولأعضاء هيئة التدريس فيها ، بل وفي المراكز البحثية المختلفة ، أو هكذا يجب ؛ فإن المجتمعات تتطلع إلى ما يصدر عن النخب العلمية والفكرية فيها ، سواء جاء ذلك في شكل مؤلفات ، أو ندوات ، أو مؤتمرات ، أو غيرها ، وإذا ما تخلفت الجامعات وأعضاؤها في القيام بهذا الدور فسيتصدى له غيرهم من غير المتخصصين ، الذين ربما أفسدوا حيث أرادوا الإصلاح .

وغني عن القول أن تناول دارسي التاريخ لمثل هذا الموضوع لا يعد تدخلاً في تخصص غيرهم ، وذلك لاعتبارات التقاطع المعرفي بين العلوم الإنسانية ، وهي العلوم (البينية) ذات التخصصات المتداخلة ، التي يمكن لدارسين ذوي تخصصات مختلفة التطرق لها ، كل من زاوية تخصصه .

المستودع الرقمي لمركز بحوث ودراسات المدينة المنورة

تأتي هذه المشاركة في هذا الموضوع محاولة لتقديم رؤية علمية تأصيلية للموقف من الوطن ، حاولت فيها أن أكون موضوعياً متجرداً ، ولست أزعم أنني سآتي فيها بما لم يأت به الأولون ، أو أنني سأوفيها حقها من البحث ، ولكنه اجتهاد أرجو أن أوفق فيه للصواب .

استندت الدراسة كما يتضح من عنوانها إلى المادة التاريخية في القرآن والسنة والسيرة .

أما القرآن الكريم فمع أنه كتاب تشريع وليس كتاب تاريخ ، والمادة التاريخية فيه عبارة عن إشارات فقط تفتقد إلى التفصيل في كثير من الأحيان ، إلاّ أنه يتضمن معطيات تاريخية لا نستطيع بدونها أن نتصور أو نفهم التاريخ بوضوح ، ليس على صعيد سرد الأخبار فحسب ، بل على صعيد تفسيرها ، والتوجيه إلى الفوائد والعبر المستنبطة منها ، وهو معين لا ينضب لدارسي التاريخ ، ومن جهة أخرى فليس ثمة أمل في العثور على مصدر أوثق وأصدق منه ، ومن هنا فلم يكن لنا القفز عليه ، أو تجاوزه ، أو الاستغناء عنه عند تناول مثل هذا الموضوع .

وفي السياق نفسه تأتي كل الأخبار والروايات الصحيحة الواردة في السنة المطهرة . أما سيرة النبي محمد ﷺ فهي مقدمة التاريخ الإسلامي التي يشرف بها ويفاخر ، ومن هنا فإن صلتها كمصدر أصيل من مصادر هذا الموضوع تبدو واضحة .

كما استندت إلى تعاليم الشريعة الإسلامية ؛ حيث تلعب هذه التعاليم دوراً محورياً في تشكيل مواقف المسلمين من القضايا المختلفة التي تعرض لهم ؛ ولهذا كان لا بد من التعرف على النصوص الشرعية والاجتهادات الصادرة عن نظر الفقهاء حول هذا الموضوع .

واستكمالاً لصورة الموقف العملي فقد استندت الدراسة أخيراً إلى نماذج عملية وأمثلة من مواقف المتقدمين من أوطانهم عبر مراحل التاريخ المختلفة ، مع دراسة ونقد لهذه المواقف على ضوء ما تقدم من توجيهات وممارسات .

المستودع الرقمي لمركز بحوث ودراسات المدينة المنورة

من شأن هذه المصادر مجتمعة أن تتضافر في رسم صورة الموقف من الوطن بوضوح ، على الصعيدين النظري والعملي .

والله أسأل أن يكون هذا العمل لوجهه خالصاً ، ولعباده نافعاً ، والله من وراء القصد ، وصلى الله وسلم وبارك على عبده ورسوله نبينا محمد وآله وصحبه .

تمهيد في تعريف الوطن والحاجة إليه:

الوطن هو المنزل تقيم به ، وهو موطن الإنسان ومحله ، والجمع أوطان ، يقال : وَطَنَ بالمكان وأوطَنَ : أقام . وأوطنه : اتخذه وطناً . يقال : أوطن فلان أرض كذا وكذا : أي اتخذها محلاً ومسكناً يقيم فيها . وأوطنت الأرض ، ووطّنْتُها توطيناً ، واستوطنتها أي اتخذتها وطناً . والمَوَاطن : كل مقام قام به الإنسان لأمر فهو موطن له[١] .

« وإن كل أمة لابد لهم من وطن »[٢] .

بل إن كل مخلوق لابد له من وطن .

وتتعدد أسماء أوطان المخلوقات فيقال : وطن الإنسان ، وعطن البعير ، وعرين الأسد ، ووجار الذئب والضبع ، وكناس الظبي ، وعش الطائر ، وقرية النمل ، وكور الزنانير ، ونافقاء اليربوع[٣] .

ويقسم بعضهم الوطن باعتبار المآل والمصير إلى قسمين :

وطن حقيقي . ووطن مجازي .

فالوطن الحقيقي هو (الآخرة) قال تعالى على لسان مؤمن آل فرعون : ﴿ يَٰقَوْمِ إِنَّمَا هَٰذِهِ ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَا مَتَٰعٌ وَإِنَّ ٱلْءَاخِرَةَ هِىَ دَارُ ٱلْقَرَارِ ﴾[٤] .

(١) ابن منظور ، لسان العرب ٤٥١/١٣ (وطن) .

(٢) ابن خلدون ، المقدمة ٤٧٠ .

(٣) ابن الجوزي ، المدهش ٤٤ . ابن حجر ، فتح الباري ٤١٢/٦ .

(٤) غافر (٣٩) .

المستودع الرقمي لمركز بحوث ودراسات المدينة المنورة

قال الزمخشري في تفسيرها : « افتتح بذم الدنيا وتصغير شأنها ؛ لأن الإخلاد إليها هو أصل الشر كله ، ومنه يتشعب جميع ما يؤدي إلى سخط الله ويجلب الشقاوة في العاقبة ، وثنَّى بتعظيم الآخرة والاطلاع على حقيقتها ، وأنها هي الوطن والمستقر »[١] . وقال تعالى : ﴿ وَمَا ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَآ إِلَّا لَعِبٌ وَلَهْوٌ وَلَلدَّارُ ٱلْأَخِرَةُ خَيْرٌ لِّلَّذِينَ يَتَّقُونَ أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴾[٢] ، وقال : ﴿ وَمَا هَٰذِهِ ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَآ إِلَّا لَهْوٌ وَلَعِبٌ وَإِنَّ ٱلدَّارَ ٱلْأَخِرَةَ لَهِىَ ٱلْحَيَوَانُ لَوْ كَانُوا۟ يَعْلَمُونَ ﴾[٣] .

وقال ابن القيم : « الدنيا مجاز والآخرة وطن ، والأوطار إنما تطلب في الأوطان »[٤] .

وقال أيضاً في تفسير قوله تعالى ﴿ وَإِلَيْهِ ٱلنُّشُورُ ﴾[٥] : « نبّه على أنا في هذا المسكن غير مستوطنين ولا مقيمين بل دخلناه عابري سبيل ، فلا يحسن أن نتخذه وطناً ومستقراً ، وإنما دخلناه لنتزود منه إلى دار القرار ، فهو منزل عبور ، لا مستقر حبور ، ومعبر وممر ، لا وطن ومستقر ، فتضمنت الآية الدلالة على ربوبيته ، ووحدانيته ، وقدرته ، وحكمه ، ولطفه ، والتذكير بنعمه ، وإحسانه ، والتحذير من الركون إلى الدنيا ، واتخاذها وطناً ومستقراً ، بل نسرع فيها السير إلى داره وجنته »[٦] .

وقال أيضاً : « ومن علامات [صحة القلب] أن يرتحل عن الدنيا حتى ينزل بالآخرة ويحل فيها حتى يبقى كأنه من أهلها وأبنائها ، جاء إلى هذه الدار غريباً ، يأخذ منها حاجته ويعود إلى وطنه ، كما قال ﷺ لعبد الله بن عمر : « كن في الدنيا كأنك غريب أو عابر سبيل ، وعد نفسك من أهل القبور ... »[٧] .

(١) الكشاف ٣٧٢/٣ .
(٢) الأنعام (٣٢) .
(٣) العنكبوت (٦٤) .
(٤) الفوائد ٦٠/١ .
(٥) الملك (١٥) .
(٦) الفوائد ٢٦/١ .
(٧) ابن القيم ، إغاثة اللهفان ٨٤/١ .

المستودع الرقمي لمركز بحوث ودراسات المدينة المنورة

وقال : « كلما صح القلب من مرضه ترحل إلى الآخرة وقرب منها حتى يصير من أهلها ، وكلما مرض القلب واعتل آثر الدنيا واستوطنها حتى يصير من أهلها »[١] .

وقال علي بن أبي طالب ﷺ : « إن الدنيا قد ترحلت مدبرة ، وإن الآخرة قد ترحلت مقبلة ، ولكل منهما بنون ، فكونوا من أبناء الآخرة ولا تكونوا من أبناء الدنيا ، فإن اليوم عمل ولا حساب ، وغداً حساب ولا عمل »[٢] .

وقال المناوي في التعليق على قول الرسول ﷺ السابق لابن عمر : « أي عش بباطنك عيش الغريب عن وطنه بخروجك عن أوطان عاداتها ومألوفاتها بالزهد في الدنيا والتزود منها للآخرة فإنها الوطن ، أي أن الآخرة هي دار القرار ، كما أن الغريب حيث حل نازع لوطنه ، ومهما نال من الطرف أعدها لوطنه ، وكلما قرب مرحلة سره ، وإن تعوّق ساعة ساءه ، فلا يتخذ في سفره المساكن والأصدقاء ، بل يجتزئ بالقليل قدر ما يقطع به مسافة عبوره ... فهو كعبد أرسله سيده في حاجة ، فهو إما غريب أو عابر سبيل ، فحقه أن يبادر لقضائها ثم يعود إلى وطنه ، وهذا أصل عظيم في قصر الأمل ، وأن لا يتخذ الدنيا وطناً وسكناً ، بل يكون فيها على جناح سفر ، مهيأً للرحيل ، وقد اتفقت على ذلك وصايا جميع الأمم »[٣] .

وقال الشنقيطي عند تفسير قوله تعالى : ﴿ أَمْ حَسِبْتُمْ أَن تَدْخُلُواْ ٱلْجَنَّةَ وَلَمَّا يَعْلَمِ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ جَٰهَدُواْ مِنكُمْ وَيَعْلَمَ ٱلصَّٰبِرِينَ ﴾[٤] وما في معناها من آيات : « فعلى العاقل منا معاشر بني آدم أن نتصور الواقع ونعلم أننا في الحقيقة سبي سباه إبليس بمكره وخداعه من وطنه الكريم إلى دار الشقاء والبلاء ، فيجاهد عدوه إبليس ونفسه الأمارة بالسوء حتى يرجع إلى الوطن الأول الكريم ، كما قال العلامة ابن القيم تغمده الله برحمته :

(١) السابق . والحديث في : البخاري ، الصحيح مع الفتح ٢٣٧/١١ (٦٤١٦) .
(٢) البخاري ، السابق ٢٣٩/١١ (باب في الأمل وطوله) . وابن القيم ، السابق .
(٣) فيض القدير ٥١/٥ ، ٥٢ .
(٤) آل عمران (١٤٢) .

المستودع الرقمي لمركز بحوث ودراسات المدينة المنورة

ولكننا سبي العدو فهل ترى نرد إلى أوطاننا ونسلم[١]

وقال حكيم : « الدنيا مجاز والأخرى وطن ، والأوطار في الأوطان أطوار »[٢] .

وقال الشاعر :

الروح عند إله العرش مبدوءة وتربة الأرض أصل الجسم والبدن
قد ألف الملك الحنان بينهما ليصلحا لقبول الأمر والمحن
فالروح في غربة والجسم في وطن فاعرف ذمام الغريب النازح الوطن[٣]

ومعنى الأبيات : أن وجود الروح في الجسد يعتبر من أنواع الغربة عن الوطن ؛ لأن الروح من أمر الله ، والجسد من التراب ، وشتان ما بينهما ، فالروح في غربة ما دامت في هذا الجسد ، والغريب له حقوق يجب أن ترعى حتى يأتي يوم رجوعه إلى وطنه الذي نزح منه .

أما الوطن المجازي فهو (الدنيا) التي أهبط الله آدم على ظهرها بعد أن كان في الجنة على إثر أكله من الشجرة التي نهاه الله عن الأكل منها ، ونثر ذريته فيها كالذر . يعيش فيها الإنسان ما كتب الله له فيها من عمر ، ثم ينتقل عنها ويعود إلى وطنه الحقيقي (الآخرة) .

والنوعان من الوطن بينهما علاقة تكامل ، وليس تضاد ، ولا يلغي أحدهما الآخر ، ولكل منهما حقيقته ، وحقوقه ، قال تعالى : ﴿ وَٱبْتَغِ فِيمَآ ءَاتَىٰكَ ٱللَّهُ ٱلدَّارَ ٱلْأَخِرَةَ وَلَا تَنسَ نَصِيبَكَ مِنَ ٱلدُّنْيَا وَأَحْسِن كَمَآ أَحْسَنَ ٱللَّهُ إِلَيْكَ وَلَا تَبْغِ ٱلْفَسَادَ فِى ٱلْأَرْضِ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ ٱلْمُفْسِدِينَ ﴾[٤] . فكما أن الإنسان نفسه خلقه الله من تربة الأرض ثم نفخ فيه من روحه ،

(١) أضواء البيان ٢٥٤/١ . وانظر : ابن القيم ، مفتاح دار السعادة ١٩ ، ٢٠ ، وإغاثة اللهفان ٨٤/١ . أحمد بن إبراهيم بن عيسى ، شرح قصيدة ابن القيم ٥٤٣/٢ .
(٢) ابن الجوزي ، المدهش ٢٢٣/١ .
(٣) الرازي ، التفسير الكبير ٥٤/١٥ .
(٤) القصص (٧٧) .

المستودع الرقمي لمركز بحوث ودراسات المدينة المنورة

وليس في ذلك أدنى إشكال في اجتماع روح الله وتربة الأرض في جسد الإنسان ، فكذلك الآخرة والأولى يعيش فيها الإنسان نفسه حياة تكاملية ، فالأولى مزرعة والآخرة حصاد ، والأولى عمل والآخرة حساب .

إلاّ أن الدراسة ستنصب فيما يلي على النوع الثاني من أنواع الوطن ، وهو الوطن المجازي (الدنيا) ، وعلى وجه الخصوص الوطن بمفهومه الإقليمي ، أما الوطن الأخروي فمجال الحديث عنه واسع ليس هذا محله .

كما سيكون الحديث عن الوطن بمفهومه البسيط ، بعيداً عن أنظمة وقوانين (الجنسية) التي أصبحت ترتبط بالموضوع في العصر الحديث ، إلاّ أنها تختلف من بلد لآخر ، ومن نظام لآخر ، وبعيداً عن المصطلحات التي تفرعت عنه وارتبطت به وصارت بحاجة إلى تحرير علمي دقيق لمعانيها ومدلولاتها مثل (الوطنية) و (المواطنة ، والدرجات المرتبطة بها) .

الوطن في القرآن الكريم : يتركز حديث القرآن عن الوطن في الأخبار والقصص التاريخي منذ بدء الخليقة إلى ما بعد قيام الساعة والجزاء والحساب ، وهناك إشارات كثيرة يمكن من خلالها تلمس ملامح الموقف من الوطن في القرآن الكريم ، وإن كنا لا نجد لكلمة (وطن) ذكراً صريحاً فيه ، وكل ما فيه من مشتقاتها كلمة (مَوَاطن) ، وذلك في قوله تعالى : ﴿ لَقَدْ نَصَرَكُمُ ٱللَّهُ فِي مَوَاطِنَ كَثِيرَةٍ ﴾[1] ، وهي بمعنى (مشاهد الحرب) ، واحده (موطن)[2] ، إلاّ أننا نجد فيه ألفاظاً أخرى مقاربة لمعنى (الوطن) بمفهومه المعاصر ، مثل : البلد ، والقرية ، والديار ، والأرض ، والمساكن . والفكرة التي يقدمها القرآن عن الوطن فكرة شاملة للوطن بمفهومه

(١) التوبة (٢٥) .

(٢) ابن منظور ، اللسان ٤٥١/١٣ (وَطَنَ) .

المستودع الرقمي لمركز بحوث ودراسات المدينة المنورة

الإقليمي الضيق ، المتمثل في المسكن ، والقرية ، والبلد ، وللوطن بمفهومه العام الواسع الذي يعتبر الأرض كلها وطن . وهو بمفهومه الأول يعد جزءاً من الثاني وفرعاً عنه ، والعلاقة بينهما علاقة تكامل وانسجام ، وليست علاقة تضاد واختلاف ، لا يمكن الحديث عن أحدهما بمعزل عن الآخر ، وهما يرتبطان بدورهما في تناغم فطري طبيعي بالوطن الحقيقي (الآخرة) . وعبر الدوائر الثلاث : الوطن الإقليم ، والوطن الأرض ، والوطن الآخرة يستكمل القرآن الكريم حديثه عن الوطن .

تؤكد آيات القرآن الكريم على صعيد الوطن الدنيوي بفرعيه الخاص والعام على الترابط الوثيق بين الإنسان والأرض :

فعلى **صعيد الوطن العام** تحدثنا آيات القرآن أن الله خلق الأرض ابتداءً من أجل الإنسان ، قال تعالى : ﴿ وَٱلْأَرْضَ وَضَعَهَا لِلْأَنَامِ ﴾[١] ؛ فبسطها له ، ومدها ، وفرشها ، ومهدها ، وألقى فيها رواسي ، وجعل فيها سبلاً فجاجاً . واستغرق خلقها يومين ، قال تعالى : ﴿ قُلْ أَئِنَّكُمْ لَتَكْفُرُونَ بِٱلَّذِى خَلَقَ ٱلْأَرْضَ فِى يَوْمَيْنِ ﴾[٢] ، وهي ليست أرضاً واحدة ، وإنما هي سبع أراضين ، قال تعالى : ﴿ ٱللَّهُ ٱلَّذِى خَلَقَ سَبْعَ سَمَٰوَٰتٍ وَمِنَ ٱلْأَرْضِ مِثْلَهُنَّ ﴾[٣] وطبيعة هذه الأرض تختلف من مكان إلى آخر ؛ فمنها الأرض الجرز ، والأرض الميتة ، والأرض المقدسة ، والأرض المباركة ، والبلد الطيب ، والبلد الخبيث ، والبلد الميت[٤] . ومن أبعادها ؛ أقصى الأرض ، وأدنى الأرض ، وأطراف الأرض . ومن مواضعها ؛ بدر ، وحنين ، والحجر ، والرس ،

(١) الرحمن (١٠) .
(٢) فصلت (٩) .
(٣) الطلاق (١٢) .
(٤) الأعراف (٥٧ ، ٥٨) . الفرقان (٤٩) . سبأ (١٥) . فاطر (٩) . الزخرف (١١) . ق (١١) .

المستودع الرقمي لمركز بحوث ودراسات المدينة المنورة

ومصر ، ومكة ، والأحقاف ، ومدين ، والمدينة . وكنى عن مواضع أخرى تقع حالياً في : فلسطين ، والشام ، والعراق ، والأردن ، ومصر ، وتركيا ، والجزيرة العربية (المملكة العربية السعودية) وهي تنقص من أطرافها ، قال تعالى : ﴿ أَوَلَمْ يَرَوْاْ أَنَّا نَأْتِي ٱلْأَرْضَ نَنقُصُهَا مِنْ أَطْرَافِهَا ﴾[١] ، وفي نهاية الأمر يرث الله هذه الأرض ، قال تعالى : ﴿ وَلِلَّهِ مِيرَاثُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ ﴾[٢] وقال : ﴿ وَلِلَّهِ مِيرَاثُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ﴾[٣] .

وأنها للناس عامة ، يتعاقبون فيها ، ويخلف بعضهم بعضاً ، جيلاً بعد جيل ، وقرناً بعد قرن ، قال تعالى : ﴿ وَهُوَ ٱلَّذِي جَعَلَكُمْ خَلَٰٓئِفَ ٱلْأَرْضِ ﴾[٤] ، وقال : ﴿ هُوَ ٱلَّذِي جَعَلَكُمْ خَلَٰٓئِفَ فِي ٱلْأَرْضِ ﴾[٥] ، وقال : ﴿ أَوَلَمْ يَهْدِ لِلَّذِينَ يَرِثُونَ ٱلْأَرْضَ مِنۢ بَعْدِ أَهْلِهَآ ﴾[٦] ، وقال : ﴿ إِنَّ ٱلْأَرْضَ لِلَّهِ يُورِثُهَا مَن يَشَآءُ مِنْ عِبَادِهِۦ ﴾[٧] .

مكّن فيها ليوسف ، قال تعالى : ﴿ وَكَذَٰلِكَ مَكَّنَّا لِيُوسُفَ فِي ٱلْأَرْضِ ﴾[٨] ، وقال : ﴿ وَكَذَٰلِكَ مَكَّنَّا لِيُوسُفَ فِي ٱلْأَرْضِ يَتَبَوَّأُ مِنْهَا حَيْثُ يَشَآءُ ﴾[٩] ، ومكّن للخضر ، قال تعالى : ﴿ إِنَّا مَكَّنَّا لَهُۥ فِي ٱلْأَرْضِ وَءَاتَيْنَٰهُ مِن كُلِّ شَيْءٍ سَبَبًا ﴾[١٠] ، وجعل داود فيها خليفة ، قال تعالى : ﴿ يَٰدَاوُۥدُ إِنَّا جَعَلْنَٰكَ خَلِيفَةً فِي ٱلْأَرْضِ ﴾[١١] ،

(١) الرعد (٤١) .
(٢) آل عمران (١٨٠) .
(٣) الحديد (١٠) .
(٤) الأنعام (١٦٥) .
(٥) فاطر (٣٩) .
(٦) الأعراف (١٠٠) .
(٧) الأعراف (١٢٨) .
(٨) يوسف (٢١) .
(٩) يوسف (٥٦) .
(١٠) الكهف (٨٤) .
(١١) ص (٢٦) .

المستودع الرقمي لمركز بحوث ودراسات المدينة المنورة

ومكّن لبني إسرائيل ، قال تعالى : ﴿ وَقُلْنَا مِنۢ بَعْدِهِۦ لِبَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ ٱسْكُنُوا۟ ٱلْأَرْضَ فَإِذَا جَآءَ وَعْدُ ٱلْءَاخِرَةِ جِئْنَا بِكُمْ لَفِيفًا ﴾[١] .

ومع أن خلق الأرض أعظم من خلق الإنسان ، قال تعالى : ﴿ لَخَلْقُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ أَكْبَرُ مِنْ خَلْقِ ٱلنَّاسِ ﴾[٢] .

بل إن الإنسان نفسه خلق من هذه الأرض ، قال تعالى : ﴿ مِنْهَا خَلَقْنَٰكُمْ وَفِيهَا نُعِيدُكُمْ وَمِنْهَا نُخْرِجُكُمْ تَارَةً أُخْرَىٰ ﴾[٣] . وقال : ﴿ هُوَ أَعْلَمُ بِكُمْ إِذْ أَنشَأَكُم مِّنَ ٱلْأَرْضِ وَإِذْ أَنتُمْ أَجِنَّةٌ فِى بُطُونِ أُمَّهَٰتِكُمْ ﴾[٤] . وقال : ﴿ وَمِنْ ءَايَٰتِهِۦٓ أَنْ خَلَقَكُم مِّن تُرَابٍ ثُمَّ إِذَآ أَنتُم بَشَرٌ تَنتَشِرُونَ ﴾[٥] . وقال : ﴿ إِنَّ مَثَلَ عِيسَىٰ عِندَ ٱللَّهِ كَمَثَلِ ءَادَمَ خَلَقَهُۥ مِن تُرَابٍ ثُمَّ قَالَ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ ﴾[٦] .

فقد ذللها له ، قال تعالى : ﴿ هُوَ ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُمُ ٱلْأَرْضَ ذَلُولًا ﴾[٧] بل وسخر له كل ما فيها ، قال تعالى : ﴿ هُوَ ٱلَّذِى خَلَقَ لَكُم مَّا فِى ٱلْأَرْضِ جَمِيعًا ﴾[٨] ، وقال : ﴿ أَلَمْ تَرَ أَنَّ ٱللَّهَ سَخَّرَ لَكُم مَّا فِى ٱلْأَرْضِ ﴾[٩] .

وأخبر الإنسان أن مكثه في هذه الأرض سيكون مؤقتاً إلى حين ، قال تعالى : ﴿ وَلَكُمْ فِى ٱلْأَرْضِ مُسْتَقَرٌّ وَمَتَٰعٌ إِلَىٰ حِينٍ ﴾[١٠] .

وأمره بعمارتها ، قال تعالى : ﴿ هُوَ أَنشَأَكُم مِّنَ ٱلْأَرْضِ وَٱسْتَعْمَرَكُمْ فِيهَا ﴾[١١] ، قال ابن سعدي في شرح الآية : « أي خلقكم منها ، واستخلفكم فيها ،

(١) الإسراء (١٠٤) .
(٢) غافر (٥٧) .
(٣) طه (٥٥) .
(٤) النجم (٣٢) .
(٥) الروم (٢٠) .
(٦) آل عمران (٥٩) .
(٧) الملك (١٥) .
(٨) البقرة (٢٩) .
(٩) الحج (٦٥) .
(١٠) البقرة (٣٦) .
(١١) هود (٦١) .

المستودع الرقمي لمركز بحوث ودراسات المدينة المنورة

وأنعم عليكم بالنعم الظاهرة ، والباطنة ، ومكنكم في الأرض : تبنون ، وتغرسون ، وتزرعون ، وتحرثون ما شئتم ، وتنتفعون بمنافعها ، وتستغلون مصالحها ... »[١] .

ونهاه عن الإفساد فيها ، قال تعالى : ﴿ وَلَا تُفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ بَعْدَ إِصْلَاحِهَا ﴾[٢] .

وأخبره أن العاقبة الحميدة فيها ستكون لأوليائه الصالحين ؛ فقد أورث الذين كانوا يستضعفون من بني إسرائيل مشارق الأرض ومغاربها ، قال تعالى : ﴿ وَأَوْرَثْنَا الْقَوْمَ الَّذِينَ كَانُوا يُسْتَضْعَفُونَ مَشَارِقَ الْأَرْضِ وَمَغَارِبَهَا الَّتِي بَارَكْنَا فِيهَا وَتَمَّتْ كَلِمَتُ رَبِّكَ الْحُسْنَىٰ عَلَىٰ بَنِي إِسْرَائِيلَ بِمَا صَبَرُوا وَدَمَّرْنَا مَا كَانَ يَصْنَعُ فِرْعَوْنُ وَقَوْمُهُ وَمَا كَانُوا يَعْرِشُونَ ﴾[٣] . كما أورثهم كنوز أعدائهم وأموالهم وديارهم ، قال تعالى : ﴿ فَأَخْرَجْنَاهُم مِّن جَنَّاتٍ وَعُيُونٍ ﴿٥٧﴾ وَكُنُوزٍ وَمَقَامٍ كَرِيمٍ ﴿٥٨﴾ كَذَٰلِكَ وَأَوْرَثْنَاهَا بَنِي إِسْرَائِيلَ ﴾[٤] ، وقال تعالى : ﴿ وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِرُسُلِهِمْ لَنُخْرِجَنَّكُم مِّنْ أَرْضِنَا أَوْ لَتَعُودُنَّ فِي مِلَّتِنَا فَأَوْحَىٰ إِلَيْهِمْ رَبُّهُمْ لَنُهْلِكَنَّ الظَّالِمِينَ ﴿١٣﴾ وَلَنُسْكِنَنَّكُمُ الْأَرْضَ مِن بَعْدِهِمْ ذَٰلِكَ لِمَنْ خَافَ مَقَامِي وَخَافَ وَعِيدِ ﴾[٥] ، وقال تعالى : ﴿ وَلَقَدْ كَتَبْنَا فِي الزَّبُورِ مِن بَعْدِ الذِّكْرِ أَنَّ الْأَرْضَ يَرِثُهَا عِبَادِيَ الصَّالِحُونَ ﴾[٦] ، وقال تعالى : ﴿ وَنُرِيدُ أَن نَّمُنَّ عَلَى الَّذِينَ اسْتُضْعِفُوا فِي الْأَرْضِ وَنَجْعَلَهُمْ أَئِمَّةً وَنَجْعَلَهُمُ الْوَارِثِينَ ﴿٥﴾ وَنُمَكِّنَ لَهُمْ فِي

(١) ابن سعدي ، التفسير ٢/٣٧٤ ، ٣٧٥ .

(٢) الأعراف (٥٦) .

(٣) الأعراف (١٣٧) .

(٤) الشعراء (٥٧-٥٩) .

(٥) إبراهيم (١٣ ، ١٤) .

(٦) على أحد الأقوال في تفسير (الأرض) . انظر : الماوردي ، التفسير ٣/٤٧٥ . الرازي ، التفسير الكبير ٢٢/١٩٩ . والآية رقمها (١٠٥) من سورة الأنبياء .

المستودع الرقمي لمركز بحوث ودراسات المدينة المنورة

ٱلْأَرْضِ وَنُرِىَ فِرْعَوْنَ وَهَـٰمَـٰنَ وَجُنُودَهُمَا مِنْهُم مَّا كَانُوا۟ يَحْذَرُونَ ﴾[١] ، وقال تعالى : ﴿ وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مِنكُمْ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّـٰلِحَـٰتِ لَيَسْتَخْلِفَنَّهُمْ فِى ٱلْأَرْضِ كَمَا ٱسْتَخْلَفَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ وَلَيُمَكِّنَنَّ لَهُمْ دِينَهُمُ ٱلَّذِى ٱرْتَضَىٰ لَهُمْ وَلَيُبَدِّلَنَّهُم مِّنۢ بَعْدِ خَوْفِهِمْ أَمْنًا يَعْبُدُونَنِى لَا يُشْرِكُونَ بِى شَيْـًٔا وَمَن كَفَرَ بَعْدَ ذَٰلِكَ فَأُو۟لَـٰٓئِكَ هُمُ ٱلْفَـٰسِقُونَ ﴾[٢] .

قال ابن كثير في التعليق على الآية : « فالصحابة ﷺ لما كانوا أقوم الناس بعد النبي ﷺ بأوامر الله ﷻ ، وأطوعهم لله ، كان نصرهم بحسبهم ، أظهروا كلمة الله في المشارق والمغارب ، وأيدهم تأييداً عظيماً ، وحكموا في سائر العباد والبلاد ، ولما قصّر الناس بعدهم في بعض الأوامر نقص ظهورهم بحسبهم »[٣] .

ووعدهم الأمن والطمأنينة والاستقرار في هذه الأرض ، قال تعالى : ﴿ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَلَمْ يَلْبِسُوٓا۟ إِيمَـٰنَهُم بِظُلْمٍ أُو۟لَـٰٓئِكَ لَهُمُ ٱلْأَمْنُ وَهُم مُّهْتَدُونَ ﴾[٤] قال ابن سعدي في شرح الآية : « الأمن من : المخاوف ، والعذاب ، والشقاء ، والهداية إلى الصراط المستقيم . فإن كانوا لم يلبسوا إيمانهم بظلم مطلقاً ، لا بشرك ولا بمعاصي ، حصل لهم الأمن التام ، والهداية التامة . وإن كانوا لم يلبسوا إيمانهم بالشرك وحده ، ولكنهم يعملون السيئات حصل لهم أصل الهداية ، وأصل الأمن ، وإن لم يحصل لهم كمالها . ومفهوم الآية الكريمة أن الذين لم يحصل لهم الأمران لم يحصل لهم هداية ، ولا أمن ، بل حظهم الضلال والشقاء »[٥] . وقال تعالى : ﴿ فَمَنِ ٱتَّبَعَ هُدَاىَ فَلَا يَضِلُّ وَلَا يَشْقَىٰ ﴾[٦] .

(١) القصص (٥ ، ٦) .
(٢) النور (٥٤) .
(٣) ابن كثير ، التفسير ٣٠٢/٣ .
(٤) الأنعام (٨٢) .
(٥) ابن سعدي ، التفسير ٣٩/٢ .
(٦) طه (١٢٣) .

المستودع الرقمي لمركز بحوث ودراسات المدينة المنورة

أما الذين أساؤوا على هذه الأرض فإن عاقبتهم في الدنيا قبل الآخرة ستكون سيئة ، قال تعالى : ﴿ أَلَمْ يَرَوْا كَمْ أَهْلَكْنَا مِن قَبْلِهِم مِّن قَرْنٍ مَّكَّنَّاهُمْ فِي الْأَرْضِ مَا لَمْ نُمَكِّن لَّكُمْ وَأَرْسَلْنَا السَّمَاءَ عَلَيْهِم مِّدْرَارًا وَجَعَلْنَا الْأَنْهَارَ تَجْرِي مِن تَحْتِهِمْ فَأَهْلَكْنَاهُم بِذُنُوبِهِمْ وَأَنشَأْنَا مِن بَعْدِهِمْ قَرْنًا آخَرِينَ ﴾[1] وقال : ﴿ أَوَلَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَيَنظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ كَانُوا أَشَدَّ مِنْهُمْ قُوَّةً وَآثَارُوا الْأَرْضَ وَعَمَرُوهَا أَكْثَرَ مِمَّا عَمَرُوهَا وَجَاءَتْهُمْ رُسُلُهُم بِالْبَيِّنَاتِ فَمَا كَانَ اللَّهُ لِيَظْلِمَهُمْ وَلَكِن كَانُوا أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ ﴿٩﴾ ثُمَّ كَانَ عَاقِبَةَ الَّذِينَ أَسَاءُوا السُّوأَىٰ أَن كَذَّبُوا بِآيَاتِ اللَّهِ وَكَانُوا بِهَا يَسْتَهْزِئُونَ ﴾[2] ، وقال تعالى : ﴿ وَكَمْ أَهْلَكْنَا مِن قَرْيَةٍ بَطِرَتْ مَعِيشَتَهَا فَتِلْكَ مَسَاكِنُهُمْ لَمْ تُسْكَن مِّن بَعْدِهِمْ إِلَّا قَلِيلًا وَكُنَّا نَحْنُ الْوَارِثِينَ ﴾[3] . وقال عن قوم سبأ : ﴿ لَقَدْ كَانَ لِسَبَإٍ فِي مَسْكَنِهِمْ آيَةٌ ۖ جَنَّتَانِ عَن يَمِينٍ وَشِمَالٍ كُلُوا مِن رِّزْقِ رَبِّكُمْ وَاشْكُرُوا لَهُ ۚ بَلْدَةٌ طَيِّبَةٌ وَرَبٌّ غَفُورٌ ﴿١٥﴾ فَأَعْرَضُوا فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ سَيْلَ الْعَرِمِ وَبَدَّلْنَاهُم بِجَنَّتَيْهِمْ جَنَّتَيْنِ ذَوَاتَيْ أُكُلٍ خَمْطٍ وَأَثْلٍ وَشَيْءٍ مِّن سِدْرٍ قَلِيلٍ ﴿١٦﴾ ذَٰلِكَ جَزَيْنَاهُم بِمَا كَفَرُوا وَهَلْ نُجَازِي إِلَّا الْكَفُورَ ﴾[4] وقال : ﴿ وَمَنْ أَعْرَضَ عَن ذِكْرِي فَإِنَّ لَهُ مَعِيشَةً ضَنكًا ﴾[5] قال ابن كثير في شرحها : « ضنكاً في الدنيا ، فلا طمأنينة له ، ولا انشراح لصدره ، بل صدره ضيق ، حرج ؛ لضلاله ، وإن تنعم ظاهره ، ولبس ما شاء ، وأكل ما شاء ، وسكن حيث يشاء ، فإن قلبه ما لم يخلص إلى اليقين والهدى فهو في قلق وحيرة وشك ، فلا يزال في ريبه يتردد ، فهذا من ضنك المعيشة »[6] .

(١) الأنعام (٦) .

(٢) الروم (٩ ، ١٠) .

(٣) القصص (٥٨) .

(٤) سبأ (١٥-١٧) .

(٥) طه (١٢٤) .

(٦) ابن كثير ، التفسير ١٦٨/٣ .

المستودع الرقمي لمركز بحوث ودراسات المدينة المنورة

أما على **صعيد الوطن الخاص** فتحدثنا آيات الكتاب الحكيم أن حب الوطن جِبِلّةٌ في الإنسان مرتبط بأصل الخلقة ، كحب الآباء ، والأبناء ، والإخوان ، والأزواج ، والعشيرة ، والأموال ، والتجارة ، قال تعالى : ﴿ قُلْ إِن كَانَ ءَابَآؤُكُمْ وَأَبْنَآؤُكُمْ وَإِخْوَٰنُكُمْ وَأَزْوَٰجُكُمْ وَعَشِيرَتُكُمْ وَأَمْوَٰلٌ ٱقْتَرَفْتُمُوهَا وَتِجَٰرَةٌ تَخْشَوْنَ كَسَادَهَا وَمَسَٰكِنُ تَرْضَوْنَهَآ أَحَبَّ إِلَيْكُم مِّنَ ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَجِهَادٍ فِى سَبِيلِهِۦ فَتَرَبَّصُوا۟ حَتَّىٰ يَأْتِىَ ٱللَّهُ بِأَمْرِهِۦ وَٱللَّهُ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلْفَٰسِقِينَ ﴾[1] .

ولهذا فقد حرم تعالى على بني إسرائيل إخراج بعضهم بعضاً من ديارهم ، وأخذ عليهم العهد والميثاق بذلك ، واعتبر إخراج بعضهم من أوطانهم جريمة مساوية لقتلهم ، قال تعالى : ﴿ وَإِذْ أَخَذْنَا مِيثَٰقَكُمْ لَا تَسْفِكُونَ دِمَآءَكُمْ وَلَا تُخْرِجُونَ أَنفُسَكُم مِّن دِيَٰرِكُمْ ثُمَّ أَقْرَرْتُمْ وَأَنتُمْ تَشْهَدُونَ ﴿٨٤﴾ ثُمَّ أَنتُمْ هَٰٓؤُلَآءِ تَقْتُلُونَ أَنفُسَكُمْ وَتُخْرِجُونَ فَرِيقًا مِّنكُم مِّن دِيَٰرِهِمْ تَظَٰهَرُونَ عَلَيْهِم بِٱلْإِثْمِ وَٱلْعُدْوَٰنِ وَإِن يَأْتُوكُمْ أُسَٰرَىٰ تُفَٰدُوهُمْ وَهُوَ مُحَرَّمٌ عَلَيْكُمْ إِخْرَاجُهُمْ . . ﴾[2] .

بل وجعل للخروج من الوطن نفس القدرة التي للقتل على تكفير الخطايا والذنوب والسيئات التي كان يصيبها الناس من بني إسرائيل ، قال تعالى : ﴿ وَلَوْ أَنَّا كَتَبْنَا عَلَيْهِمْ أَنِ ٱقْتُلُوٓا۟ أَنفُسَكُمْ أَوِ ٱخْرُجُوا۟ مِن دِيَٰرِكُم مَّا فَعَلُوهُ إِلَّا قَلِيلٌ مِّنْهُمْ وَلَوْ أَنَّهُمْ فَعَلُوا۟ مَا يُوعَظُونَ بِهِۦ لَكَانَ خَيْرًا لَّهُمْ وَأَشَدَّ تَثْبِيتًا ﴾[3] .

كما جعل الخروج من الوطن الذي أصاب يهود بني النضير في العام الرابع الهجري عقاباً مساوياً لقتلهم ، بمعنى أنهم لو لم يعاقبوا بالجلاء عن وطنهم لكان القتل مصيرهم ، قال تعالى : ﴿ وَلَوْلَآ أَن كَتَبَ ٱللَّهُ عَلَيْهِمُ

(١) انظر : ابن القيم ، بدائع الفوائد ٧٦/١ ، ٧٧ . والآية رقمها (٢٤) من سورة التوبة . يقول الشيخ الألباني مؤكداً على هذا المعنى : « حب الوطن كحب النفس والمال ونحوه ، كل ذلك غريزي في الإنسان » . السلسلة الضعيفة ٥٥/١ (٣٦) .

(٢) البقرة (٨٤ ، ٨٥) .

(٣) النساء (٦٦) .

المستودع الرقمي لمركز بحوث ودراسات المدينة المنورة

ٱلْجَلَآءَ لَعَذَّبَهُمْ فِى ٱلدُّنْيَا وَلَهُمْ فِى ٱلْءَاخِرَةِ عَذَابُ ٱلنَّارِ ﴾[١] ، فقد ذهب المفسرون إلى أن العذاب المذكور في الآية هو القتل[٢] .

وفي أحيان أخر يكون القتل أهون من الإخراج من الوطن ، حين يصبح الإخراج من الوطن نوعاً من أنواع الابتلاء والفتنة يتمنى معه الإنسان الموت فلا يجده ، قال تعالى : ﴿ وَٱقْتُلُوهُمْ حَيْثُ ثَقِفْتُمُوهُمْ وَأَخْرِجُوهُم مِّنْ حَيْثُ أَخْرَجُوكُمْ ۚ وَٱلْفِتْنَةُ أَشَدُّ مِنَ ٱلْقَتْلِ وَلَا ﴾[٣] ، والمعنى أن تعريض الناس للفتنة عن دينهم بإخراجهم من ديارهم أشد من قتلهم إياهم ، قال ابن كثير : « الكفر بالله والشرك به والصد عن سبيله أبلغ وأشد وأعظم وأطَم من القتل »[٤] .

ومصداق ذلك من كلام العرب قول الشاعر :

لقتل بحد السيف أهون موقعاً على النفس من قتل بحد فراق

وقد قيل لحكيم : ما أشد من الموت ؟ قال : الذي يتمنى معه الموت[٥] .

بل ويصبح أعظم جرماً من انتهاك حرمة الشهر الحرام ، قال تعالى : ﴿ يَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلشَّهْرِ ٱلْحَرَامِ قِتَالٍ فِيهِ قُلْ قِتَالٌ فِيهِ كَبِيرٌ وَصَدٌّ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ وَكُفْرٌۢ بِهِۦ وَٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ وَإِخْرَاجُ أَهْلِهِۦ مِنْهُ أَكْبَرُ عِندَ ٱللَّهِ ﴾[٦] .

واستجابةً لهذه الفطرة فقد دعا خليل الله إبراهيم للبلد التي خلّف فيها زوجه وولده (مكة) بالرزق والأمن ، قال تعالى : ﴿ وَإِذْ قَالَ إِبْرَٰهِـۧمُ رَبِّ ٱجْعَلْ هَٰذَا بَلَدًا ءَامِنًا وَٱرْزُقْ أَهْلَهُۥ مِنَ ٱلثَّمَرَٰتِ مَنْ ءَامَنَ مِنْهُم بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ ۖ ٱللَّهِ ... ﴾[٧] . وقال : ﴿ وَإِذْ قَالَ إِبْرَٰهِيمُ رَبِّ ٱجْعَلْ هَٰذَا ٱلْبَلَدَ ءَامِنًا ﴾[٨] .

---

(١) الحشر (٣) .

(٢) الطبري ، التفسير ٣٨/٢٨ . الرازي ، التفسير الكبير ٢٤٦/٢٩ .

(٣) البقرة (١٩١) .

(٤) ابن كثير ، التفسير ١/ ٢٢٧ .

(٥) الزمخشري ، الكشاف ١١٨/١ . الشربيني ، تفسير السراج المنير١/١٤٥ .

(٦) البقرة (٢١٧) .

(٧) البقرة (١٢٦) .

(٨) إبراهيم (٣٥) .

المستودع الرقمي لمركز بحوث ودراسات المدينة المنورة

وقد استجاب الله دعاء خليله ، فجعل مكة حرماً آمنا في الوقت الذي ينتشر الخوف من حولها ، يجبى إليها ثمرات كل شيء ، وقد جاء ذلك في سياق الامتنان على أهل مكة الذين هم من ذرية إسماعيل ابن خليل الله إبراهيم ، مع أنهم لم يحققوا شرط الخليل عليه السلام من الإيمان بالله واليوم الآخر ، فضلاً من الله ونعمة ، ليدل عباده على عظيم حلمه عليهم ورحمته بهم ، قال تعالى : ﴿ أَوَلَمْ يَرَوْاْ أَنَّا جَعَلْنَا حَرَمًا ءَامِنًا وَيُتَخَطَّفُ ٱلنَّاسُ مِنْ حَوْلِهِمْ ... ﴾[١] . وقال : ﴿ أَوَلَمْ نُمَكِّن لَّهُمْ حَرَمًا ءَامِنًا يُجْبَىٰٓ إِلَيْهِ ثَمَرَٰتُ كُلِّ شَىْءٍ رِّزْقًا مِّن لَّدُنَّا ﴾[٢] . وقال : ﴿ فَلْيَعْبُدُواْ رَبَّ هَٰذَا ٱلْبَيْتِ ﴿٣﴾ ٱلَّذِىٓ أَطْعَمَهُم مِّن جُوعٍ وَءَامَنَهُم مِّنْ خَوْفٍۭ ﴾[٣] .

كما تحدثنا أنه تعالى سلب بني إسرائيل نعمة الوطن ، وسلط عليهم عقوبة الضياع والتشريد والتيه في الأرض ، حين عصوا رسله ، وكذبوا أنبياءه ، وقتلوا بعضهم ، قال تعالى : ﴿ قَالَ فَإِنَّهَا مُحَرَّمَةٌ عَلَيْهِمْ أَرْبَعِينَ سَنَةً يَتِيهُونَ فِى ٱلْأَرْضِ فَلَا تَأْسَ عَلَى ٱلْقَوْمِ ٱلْفَٰسِقِينَ ﴾[٤] . وقال تعالى : ﴿ وَإِذْ تَأَذَّنَ رَبُّكَ لَيَبْعَثَنَّ عَلَيْهِمْ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ مَن يَسُومُهُمْ سُوٓءَ ٱلْعَذَابِ ﴾[٥] ، ذهب بعض أهل التفسير إلى أن الحرمان من الوطن في الدنيا إلى يوم القيامة هو سوء العذاب المتوعد به في الآية ، قال الرازي : « وهذه الآية نزلت في اليهود على أنه لا دولة لهم ، ولا عز ، وأن الذل يلزمهم ، والصغار لا يفارقهم »[٦] .

قلت : والذي ذكره الرازي يشهد التاريخ على صحته ، فإنه لم يعرف لليهود عبر تاريخهم الطويل دولة ، ولا كيان جامع ، ولا حضارة كسائر

(١) العنكبوت (٦٧) .

(٢) القصص (٥٧) .

(٣) قريش (٣ ، ٤) .

(٤) المائدة (٢٦) .

(٥) الأعراف (١٦٧) .

(٦) الرازي ، التفسير ٣٥/١٥ .

المستودع الرقمي لمركز بحوث ودراسات المدينة المنورة

الأمم ، وكانوا على مر التاريخ قذىً في عين الزمان ، وشجاً في حلق أبنائه ، ووباءً تتقاذفه الأمم ، ابتداءً من حرمانهم من دخول الأرض المقدسة ، زمن موسى عليه السلام ، حتى انقرض ذلك الجيل ، ثم قَهْرِهِم على أيدي الملوك من اليونانيين ، والكلدانيين ، والآشوريين ، إلى أن صاروا إلى قَهْر النصارى وإذلالهم[١] ، ومروراً بالسبي الذي تعرضوا له على أيدي البابليين ، زمن بختنصر ، والجلاء من بلاد الشام ، على أيدي الرومان[٢] ، والجلاء من المدينة زمن النبي محمد ﷺ[٣] ، ثم من جزيرة العرب زمن عمر الفاروق رضي الله عنه[٤] ، وانتهاءً باضطهادهم في العصور الحديثة على أيدي النازيين[٥] ، ثم اتفاق أوروبا وأمريكا أخيراً على الخلاص منهم بالدفع بهم في نحور المسلمين في فلسطين[٦] ، « ثم آخر أمرهم أنهم يخرجون أنصاراً للدجال ، فيقتلهم المسلمون مع عيسى بن مريم عليه السلام ، وذلك آخر الزمان »[٧] .

وهذا أعظم دليل على ملازمة الذل والصغار لهم حتى ذلك الوقت المتأخر من الزمان ، وإن تخلل ذلك فترات ظهور في بعض أدوار التاريخ ، إلا أن ذلك يبقى ظهوراً مؤقتاً نتيجة ضعف المسلمين من جهة ، ودعم أعداء الإسلام والمسلمين لهم ، إلا أنه بمجرد أن يعود المسلمون إلى دينهم الحق – ونرجو أن يكون ذلك قريبًا – ويظهر للعالم زيف اليهود ومكرهم ، وتتكشف

(١) ابن كثير ، التفسير ٩٨/١ ، ٤٠/٢ ، ٢٥٩ . عمر فروخ ومصطفي خالدي ، التبشير والاستعمار ١٧٩ .

(٢) محيي الدين القضماني ، قضايا هامة في حاضر العالم الإسلامي ١٩ . محمد السيد الوكيل ، يثرب قبل الإسلام ٣٩ ، ٤٠ . أكرم العمري ، السيرة الصحيحة ٢٢٧/١ . جواد علي ، المفصل في تاريخ العرب ٥١٧/٦ ، ٥١٨ .

(٣) انظر : ابن إسحاق ، السيرة ٥٠/٣ ، ١٩٩ ، ٢٤٤ . أكرم العمري ، السابق ٢٩٩/١-٣١٧ .

(٤) البخاري ، الصحيح مع الفتح ٥٤٠/٤ (٢٢٨٦) ، ٣٨٥/٥ (٢٧٣٠) .

(٥) جميل المصري ، حاضر العالم الإسلامي ٣٢٧ ، ٣٤٠ .

(٦) عمر فروخ ومصطفى خالدي ، التبشير والاستعمار ١٧٩ ، ١٨٢ . جميل المصري ، السابق ٣٠٨ ، ٣٠٩ ، ٣١٠ ، ٣٢٩ .

(٧) ابن كثير ، التفسير ٢٥٩/٢ . وعند مسلم في الصحيح ٢٢٦٦/٤ (٢٩٤٤) : « يتبع الدجال من يهود أصبهان سبعون ألفاً » . وعند ابن أبي شيبة في المصنف ٦٦١/٨ ، ما ذكر في فتنة الدجال (٧٣) : « أكثر أتباع الدجال اليهود وأولاد المومسات » . وبنحوه عند أحمد بن حنبل في العلل ومعرفة الرجال ٦٣/٣ (٤١٨١) . وانظر : ابن حجر ، فتح الباري (كتاب الاعتصام بالكتاب والسنة ، باب من رأى ترك النكير) ٣٤٠/١٣ .

المستودع الرقمي لمركز بحوث ودراسات المدينة المنورة

حقائقهم ، فإن الأمور حتماً ستعود إلى سابق عهدها ، ويعود معها اليهود إلى مكانهم الطبيعي ، اللائق بهم بين الأمم ، الذي كانوا عليه في الماضي ، إذا ما بقوا على ماهم عليه .

كما تحدثنا أن أعداء الرسل إدراكاً منهم لقيمة وأهمية الأوطان في حياة الناس كانوا يلجؤون إلى تهديد رسل الله وأتباعهم بالإخراج من أوطانهم ؛ فرسل الله جميعاً تعرضوا لذلك ، قال تعالى : ﴿ وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لِرُسُلِهِمْ لَنُخْرِجَنَّكُم مِّنْ أَرْضِنَآ أَوْ لَتَعُودُنَّ فِي مِلَّتِنَا ﴾[١] .

فشعيب عليه السلام تعرض لذلك ، قال تعالى : ﴿ قَالَ ٱلْمَلَأُ ٱلَّذِينَ ٱسْتَكْبَرُواْ مِن قَوْمِهِۦ لَنُخْرِجَنَّكَ يَٰشُعَيْبُ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مَعَكَ مِن قَرْيَتِنَآ أَوْ لَتَعُودُنَّ فِي مِلَّتِنَا ﴾[٢] فقال شعيب عليه السلام مستنكراً : ﴿ أَوَلَوْ كُنَّا كَٰرِهِينَ ﴾[٣] أي كارهين للخروج من الوطن ، وكارهين للكفر على حد سواء .

وكذلك لوط عليه السلام ، قال تعالى على لسان قومه : ﴿ قَالُواْ لَئِن لَّمْ تَنتَهِ يَٰلُوطُ لَتَكُونَنَّ مِنَ ٱلْمُخْرَجِينَ ﴾[٤] ، وقال : ﴿ أَخْرِجُوٓاْ ءَالَ لُوطٍ مِّن قَرْيَتِكُمْ ۖ إِنَّهُمْ أُنَاسٌ يَتَطَهَّرُونَ ﴾[٥] وقال : ﴿ قَالُوٓاْ أَخْرِجُوهُم مِّن قَرْيَتِكُمْ إِنَّهُمْ أُنَاسٌ يَتَطَهَّرُونَ ﴾[٦] . قال الشيخ الشنقيطي رحمه الله : « ومن أعظم خبائثهم [قوم لوط] تكذيب نبي الله لوط ، وتهديدهم له بالإخراج من الوطن »[٧] .

وكذلك محمد ﷺ ، خاتم رسل الله وأنبيائه ، قال تعالى : ﴿ وَإِذْ يَمْكُرُ بِكَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لِيُثْبِتُوكَ أَوْ يَقْتُلُوكَ أَوْ يُخْرِجُوكَ ﴾[٨] ، وقال : ﴿ وَإِن كَادُواْ

(١) إبراهيم (١٣) .
(٢) الأعراف (٨٨) .
(٣) الأعراف (٨٨) .
(٤) الشعراء (١٦٧) .
(٥) النمل (٥٦) .
(٦) الأعراف (٨٢) .
(٧) أضواء البيان ٦٤٨/٤ .
(٨) الأنفال (٣٠) .

المستودع الرقمي لمركز بحوث ودراسات المدينة المنورة

لَيَسْتَفِزُّونَكَ مِنَ ٱلْأَرْضِ لِيُخْرِجُوكَ مِنْهَا ﴾[١] ، وقال : ﴿ أَلَا تُقَٰتِلُونَ قَوْمًا نَّكَثُوٓاْ أَيْمَٰنَهُمْ وَهَمُّواْ بِإِخْرَاجِ ٱلرَّسُولِ ﴾[٢] ، وقال : ﴿ يُخْرِجُونَ ٱلرَّسُولَ وَإِيَّاكُمْ أَن تُؤْمِنُواْ بِٱللَّهِ رَبِّكُمْ ﴾[٣] ، وقال : ﴿ إِلَّا تَنصُرُوهُ فَقَدْ نَصَرَهُ ٱللَّهُ إِذْ أَخْرَجَهُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ ﴾[٤] .

واستخدمه (فرعون) مع بني إسرائيل ، وادعى زوراً وبهتاناً أن موسى إنما جاء ليخرجهم من أرضهم ، فخاطب فيهم الأحاسيس والمشاعر الوطنية ، ليكونوا أكثر تحصيناً في الاستجابة إليه ، وأكثر ممانعةً له ومدافعة ، قال تعالى على لسان فرعون : ﴿قَالَ لِلْمَلَإِ حَوْلَهُۥٓ إِنَّ هَٰذَا لَسَٰحِرٌ عَلِيمٌ ﴿٣٤﴾ يُرِيدُ أَن يُخْرِجَكُم مِّنْ أَرْضِكُم بِسِحْرِهِۦ فَمَاذَا تَأْمُرُونَ ﴾[٥] .

وقال : ﴿ قَالَ أَجِئْتَنَا لِتُخْرِجَنَا مِنْ أَرْضِنَا بِسِحْرِكَ يَٰمُوسَىٰ ﴾[٦] ، وقال : ﴿ إِنَّ هَٰذَا لَمَكْرٌ مَّكَرْتُمُوهُ فِي ٱلْمَدِينَةِ لِتُخْرِجُواْ مِنْهَآ أَهْلَهَا فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ ﴾[٧] ، وقال على لسان أتباع فرعون : ﴿ قَالَ ٱلْمَلَأُ مِن قَوْمِ فِرْعَوْنَ إِنَّ هَٰذَا لَسَٰحِرٌ عَلِيمٌ ﴿١٠٩﴾ يُرِيدُ أَن يُخْرِجَكُم مِّنْ أَرْضِكُمْ فَمَاذَا تَأْمُرُونَ ﴾[٨] ، وقال : ﴿ قَالُوٓاْ إِنْ هَٰذَٰنِ لَسَٰحِرَٰنِ يُرِيدَانِ أَن يُخْرِجَاكُم مِّنْ أَرْضِكُم بِسِحْرِهِمَا ﴾[٩] ، قال الألوسي في التعليق على موقف فرعون : « إنما قال ذلك ليبرز أن مراد موسى ليس مجرد إنجاء بني إسرائيل من أيديهم ، بل إخراج القبط من وطنهم ، وحيازة

(١) الإسراء (٧٦) ، وانظر : ابن كثير ، التفسير ٥٣/٣ .

(٢) التوبة (١٣) ، وانظر : ابن كثير ، التفسير ٣٣٩/٢ .

(٣) الممتحنة (١) ، وانظر : ابن كثير ، التفسير ٣٤٧/٤ .

(٤) التوبة (٤٠) .

(٥) الشعراء (٣٤ ، ٣٥) .

(٦) طه (٥٧) .

(٧) الأعراف (١٢٣) .

(٨) الأعراف (١٠٩-١١٠) .

(٩) طه (٦٣) .

المستودع الرقمي لمركز بحوث ودراسات المدينة المنورة

أموالهم وأملاكهم بالكلية ، حتى لا يتوجه إلى اتباعه أحد ، ويبالغوا في المدافعة والمخاصمة »[١] .

ونتيجة لما يلحق بالمبعدين عن أوطانهم من أذى مادي ومعنوي فقد رتب الله لهم عدداً من الحقوق والواجبات التي من شأنها أن تهون عليهم مصابهم والأضرار التي تلحق بهم .

ومن ذلك : أنه جعل إخراج الناس من أوطانهم من مبررات الإذن لهم بقتال من ظلمهم ، وكان سبباً في إخراجهم ، بعد أن كان ممنوعاً منه في الماضي ، بل ووعدهم النصر والظفر عليهم ، قال تعالى : ﴿ وَمَا لَنَآ أَلَّا نُقَٰتِلَ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ وَقَدۡ أُخۡرِجۡنَا مِن دِيَٰرِنَا وَأَبۡنَآئِنَا ﴾[٢] ، وقال : ﴿ أُذِنَ لِلَّذِينَ يُقَٰتَلُونَ بِأَنَّهُمۡ ظُلِمُواْۚ وَإِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ نَصۡرِهِمۡ لَقَدِيرٌ ﴾[٣] .

ومنه أنه جعل خروج الناس من أوطانهم من أسباب استحقاقهم الفيء ؛ كنوع من التعويض بسبب فقد أموالهم ، وتعرضهم للفقر والحاجة ، قال تعالى : ﴿ لِلۡفُقَرَآءِ ٱلۡمُهَٰجِرِينَ ٱلَّذِينَ أُخۡرِجُواْ مِن دِيَٰرِهِمۡ وَأَمۡوَٰلِهِمۡ يَبۡتَغُونَ فَضۡلٗا مِّنَ ٱللَّهِ وَرِضۡوَٰنٗا وَيَنصُرُونَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥٓۚ أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلصَّٰدِقُونَ ﴾[٤] .

ومنه أنه جعل خروج الناس من أوطانهم من أسباب تكفير السيئات ، ودخول الجنات ، والثواب العظيم ، قال تعالى : ﴿ فَٱلَّذِينَ هَاجَرُواْ وَأُخۡرِجُواْ مِن دِيَٰرِهِمۡ وَأُوذُواْ فِي سَبِيلِي وَقَٰتَلُواْ وَقُتِلُواْ لَأُكَفِّرَنَّ عَنۡهُمۡ سَيِّـَٔاتِهِمۡ وَلَأُدۡخِلَنَّهُمۡ جَنَّٰتٖ تَجۡرِي مِن تَحۡتِهَا ٱلۡأَنۡهَٰرُ ثَوَابٗا مِّنۡ عِندِ ٱللَّهِۗ وَٱللَّهُ عِندَهُۥ حُسۡنُ ٱلثَّوَابِ ﴾[٥] .

---

(١) الألوسي ، روح المعاني ٥٢٨/٨ .

(٢) البقرة (٢٤٦) .

(٣) الحج (٣٩) .

(٤) الحشر (٨) ، وانظر : ابن كثير ، التفسير ٣٣٧/٤ .

(٥) آل عمران (١٩٥) .

المستودع الرقمي لمركز بحوث ودراسات المدينة المنورة

كما جعل خروج الناس من أوطانهم من الأسباب الموجبة لقطع الصلة بكل من شارك في إخراج الناس من أوطانهم أو أعان عليه ، أما من لم يشارك فلا بأس من البر به والإحسان إليه رغم كفره ، قال تعالى : ﴿ لَّا يَنْهَىٰكُمُ ٱللَّهُ عَنِ ٱلَّذِينَ لَمْ يُقَٰتِلُوكُمْ فِى ٱلدِّينِ وَلَمْ يُخْرِجُوكُم مِّن دِيَٰرِكُمْ أَن تَبَرُّوهُمْ وَتُقْسِطُوٓا۟ إِلَيْهِمْ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلْمُقْسِطِينَ ﴿٨﴾ إِنَّمَا يَنْهَىٰكُمُ ٱللَّهُ عَنِ ٱلَّذِينَ قَٰتَلُوكُمْ فِى ٱلدِّينِ وَأَخْرَجُوكُم مِّن دِيَٰرِكُمْ وَظَٰهَرُوا۟ عَلَىٰٓ إِخْرَاجِكُمْ أَن تَوَلَّوْهُمْ ۚ وَمَن يَتَوَلَّهُمْ فَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلظَّٰلِمُونَ ﴾[١] .

وحين أراد الله إعزاز دينه ، والتمكين لأوليائه أباح للمسلمين ، بل أمرهم أن ينزلوا عقوبة الخروج من الوطن بعدوه وعدوهم ، كما أخرجوا المسلمين من ديارهم من قبل ظلماً وعدواناً ؛ فالجزاء من جنس العمل ، وكما تدين تدان ، قال تعالى : ﴿ وَٱقْتُلُوهُمْ حَيْثُ ثَقِفْتُمُوهُمْ وَأَخْرِجُوهُم مِّنْ حَيْثُ أَخْرَجُوكُمْ ﴾[٢] وقد فعل ذلك رسول ﷺ بمن لم يسلم منهم يوم الفتح[٣] .

الوطن في السنة والسيرة : لم يرد في السنة أو السيرة ذكر صريح لـ(الوطن) بمعناه المتداول اليوم ، لكن ورد في السنة من مشتقات كلمة (وطن) :

- نهيه ﷺ أن يوطن الرجل المكان بالمسجد[٤] .

قيل : معناه أن يألف مكاناً معلوماً من المسجد مخصوصاً ، لا يصلي إلاَّ فيه[٥] .

وإيطان المساجد : اتخاذها وطناً[٦] . إنما المساجد للصلاة ، والذكر ، وقراءة القرآن .

---

(١) الممتحنة (٨ ، ٩) .

(٢) البقرة (١٩١) .

(٣) الزمخشري ، الكشاف ١١٨/١ . البيضاوي ، التفسير ٤٧٦/١ . الألوسي ، روح المعاني ٤٧١/٢ .

(٤) أبو داود ، السنن ٥٣٩/١ (٨٦٢) . ابن خزيمة ، الصحيح ٢٨٠/٢ (١٣١٩) . الألباني ، صحيح سنن أبي داود ١٢/٤ .

(٥) الخطابي ، معالم السنن ١٨٤/١ (٢٦٢) .

(٦) ابن منظور ، اللسان ٤٥١/١٣ (وَطَنَ) .

المستودع الرقمي لمركز بحوث ودراسات المدينة المنورة

- ومما جاء في شمائله ﷺ : أنه كان لا يوطن الأماكن ، أي لا يتخذ لنفسه مجلساً يعرف به[١] ، إلاّ أن في سيرة النبي ﷺ وأصحابه ﷺ العديد من الأمثلة على الوطن بمفهومه المتعارف عليه اليوم ، لعل من أبرزها :

- صح عنه ﷺ أنه حين كان يعرض الإسلام على الناس في مكة كان يقول لهم : « من يؤويني ؟ من ينصرني ؟ حتى أبلغ رسالات ربي وله الجنة »[٢] . والإيواء الذي ينشده ﷺ ويعطي عليه الجنة لا يكون إلا بمأوى ، والمأوى هو الوطن الذي يأمن فيه ، ولا أمن في وطن إلاَّ بأتباع يمنعونه ، وبدون ذلك لا يكون وطناً ولو كان بين أهله وقومه ، فقد كان ﷺ يسأل الإيواء وهو مقيم بين قومه ، وفي ربوعهم ، فكان فاقداً للمأوى وهو مقيم ، وفاقداً للنصرة وهو بين أهله ، مع أنه ﷺ كان باراً بقومه ، حيث عرض عليهم الإسلام قبل غيرهم استجابة لقوله تعالى : ﴿ وَأَنذِرْ عَشِيرَتَكَ ٱلْأَقْرَبِينَ ﴾[٣] ، لكنهم رفضوا دعوته ، وآذوه ، فأصبح وهو بينهم شريداً طريداً وكأنه غريب الوطن[٤] ، لا يأمن على نفسه ، ولا على دعوته ، وليس بأصحابه قوة يمنعونه ، إلى أن قيّض الله له النفر من أهل المدينة فبايعوه ، وكانت بيعتهم على (الإيواء والنصرة)[٥] ، في بيعة العقبة الثانية ، ثم هاجر إلى المدينة واستوطنها هو وأصحابه ، فصارت المدينة له مأوى ، وأهلها له أنصار .

- ولما استقر به المقام في المدينة واطمأن ، وأمن بها على نفسه وأصحابه بتوفر المأوى والأنصار أخذ لسانه ﷺ يلهج بحمد الله ، والثناء عليه ،

(١) ابن سعد ، الطبقات ٤٢٤/١ . ابن حبان ، الثقات ١٤٩/٢ . ابن الأثير ، النهاية ٢٠٤/٥ .

(٢) أحمد ، المسند ٣٤٧/٢٢(١٤٤٥٦) بإسناد صحيح . ابن بلبان الفارسي ، الإحسان في تقريب صحيح ابن حبان ١٧٣/١٤ (٦٢٧٤) ، ٤٧٥/١٥ (٧٠١٢) .

(٣) الشعراء (٢١٤) .

(٤) أحمد ، المسند ١٠٥/١٨ (١١٥٤٧) بإسناد صحيح .

(٥) ابن حجر ، فتح الباري ٨٦/١ . ٢٦١/٧ ، ٢٦٣ .

المستودع الرقمي لمركز بحوث ودراسات المدينة المنورة

وشكره على نعمة (الإيواء) ، روى أنس ﷺ – وهو لم يلازم النبي ﷺ إلا في المدينة – أن رسول الله ﷺ كان إذا أوى إلى فراشه قال : « الحمد لله الذي أطعمنا ، وسقانا ، وكفانا ، وآوانا ، فكم ممن لا كافي له ولا مؤوي »[١] ، وذكر النووي من معاني « ولا مؤوي » أي لا وطن له ، ولا سكن يأوي إليه[٢] . وصح عنه في الاعتراف بهذه النعمة أيضاً قوله ﷺ : « من أمسى آمنا في سربه ، معافاً في بدنه ، عنده قوت يومه فكأنما حيزت له الدنيا بحذافيرها »[٣] .

وقد ذكّر الله المسلمين بما امتن به عليهم من نعمة الإيواء تلك ، فقال تعالى : ﴿ وَٱذْكُرُوٓاْ إِذْ أَنتُمْ قَلِيلٌ مُّسْتَضْعَفُونَ فِى ٱلْأَرْضِ تَخَافُونَ أَن يَتَخَطَّفَكُمُ ٱلنَّاسُ فَـَٔاوَىٰكُمْ وَأَيَّدَكُم بِنَصْرِهِۦ وَرَزَقَكُم مِّنَ ٱلطَّيِّبَٰتِ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴾[٤] .

- لم يؤثر عنه ﷺ عند مغادرته مكة ، ورحيله عنها ، إلى أن توفي أنه كان يوماً فرحاً بفراقها ، أو مبغضاً لها ، بل كان محباً لها ، متوجعاً على فراقها ، حتى مع انتشار الأصنام في عرصاتها ، بل وفي بيت الله المعظم وحوله ، يظهر ذلك بوضوح من خلال الأمارات التالية :

- حين أخبره ورقة بن نوفل أن قومه سيخرجونه من مكة قال ﷺ متعجباً : « أو مخرجي هم ؟! »[٥] قال السهيلي في شرحها : « يؤخذ منه شدة مفارقة الوطن على النفس » . وقال : « لما ذكر له الإخراج تحركت نفسه

(١) مسلم ، السابق ٤/٢٠٨٥ (٢٧١٥) .

(٢) النووي ، شرح صحيح مسلم ١٧/٣٤ .

(٣) الألباني ، السلسلة الصحيحة ٥/٤٠٨ (٢٣١٨) .

(٤) انظر : ابن سعدي ، التفسير ٢/١٩٧ . والآية رقمها (٢٦) من سورة الأنفال .

(٥) البخاري ، الصحيح مع الفتح ١٢/٣٦٨ (٦٩٨٢) . مسلم ، الصحيح ١/١٤٢ (١٦٠) .

المستودع الرقمي لمركز بحوث ودراسات المدينة المنورة

لحب الوطن وإلفه » . وقال : « ... يؤكد ذلك أن المشار إليه حرم الله ، وجوار بيته ، وبلدة الآباء من عهد إسماعيل عليه السلام.... »[١] .

- صح عنه ﷺ أنه حين عزم على الخروج من مكة مهاجراً إلى المدينة وقف بالحزورة[٢] ، ونظر إلى مكة ، وقال متحسراً : « والله إنك لخير أرض الله ، وأحب أرض الله إليَّ ، ولولا أني أخرجت منك ما خرجت »[٣] .
- وحين قدم المدينة عبّر عن ذلك مرة أخرى صراحة بقوله : « اللهم حبب إلينا المدينة كحبنا مكة أو أشد »[٤] ، وإن مما تضمنه هذا الدعاء من معنى أن حبهم لمكة لا يزال يشغل حيزاً في قلوبهم ، ومن لازمه حصول الشوق والحنين إليها . كما تضمن الحديث سؤاله تعالى حباً للمدينة يماثل حبهم لمكة أو أكثر ، ومن فوائد ذلك إذا ما تحقق التخفيف من لوعة البعد والفراق ، والحنين والشوق . مع ملاحظة أنه ﷺ لم يسأل ربه إبدال حبه مكة بحب المدينة ، وإنما سأل حب المدينة مع حب مكة ، وليس بينهما تعارض ؛ فإن فضل الله عظيم ، والأمر في ذلك واسع ، وليس ثمة محذور يمنع منه ؛ فالأماكن لا تذم أو تحمد لذاتها وإنما بما علق بها من خير وشر ، ونفع وضر ، حسي ومعنوي .
- سؤال ربه وهو في المدينة أن يجعل قبلته إلى مكة ، بدلاً من بيت المقدس ، وهو الذي كان يجعل الكعبة في صلاته ، وهو في مكة ، بينه وبين بيت المقدس ، فيجمع بينهما في قبلة واحدة ، ولكن مع انتقاله إلى المدينة وتغير الاتجاه تعذر الجمع بينهما ؛ لوقوع بيت المقدس إلى الشمال من المدينة ، ومكة إلى الجنوب منها ، فازداد شوقاً

(١) السهيلي ، الروض ٢٧٦/١ . وانظر : ابن حجر ، فتح الباري ٣٧٦/١٢ . وابن كثير ، البداية والنهاية ٨/٣ . وبرهان الدين الحلبي ، السيرة الحلبية ٣٩٢/١ .

(٢) تعرف اليوم باسم (القشاشية) . البلادي ، معجم المعالم الجغرافية ٩٨ .

(٣) الألباني ، صحيح الجامع الصغير ١١٩٢/٢ (٧٠٨٩) .

(٤) البخاري ، السابق ١١٩/٤ (١٨٨٩) . ومسلم ، السابق ١٠٠٣/٢ (١٣٧٦) .

المستودع الرقمي لمركز بحوث ودراسات المدينة المنورة

وحنيناً إليها ، وأخذ يقلّب وجهه في السماء ينتظر الإذن له بالتوجه في قبلته إلى مكة ، قبلة أبيه إبراهيم ، ومسقط رأسه ، وبلد الآباء والأجداد . قال تعالى حكاية عن ذلك : ﴿ قَدْ نَرَىٰ تَقَلُّبَ وَجْهِكَ فِي ٱلسَّمَآءِ فَلَنُوَلِّيَنَّكَ قِبْلَةً تَرْضَىٰهَا ﴾[١] .

- إن من كلاءة الله لنبيه ﷺ ، ورحمته به ، وشفقته عليه ، ووقوفه إلى جانبه على كل حال ، وفي الكرب والشدائد على وجه الخصوص ، ومنها خروجه هذا من مكة إلى المدينة ، ما قطعه تبارك وتعالى من وعد لنبيه ﷺ أن يعيده إلى مكة كما أخرجه منها ، مما كان له أعظم الأثر في تسكين روعه ، وكسر حدة الشوق والحنين ، قال تعالى : ﴿ إِنَّ ٱلَّذِي فَرَضَ عَلَيْكَ ٱلْقُرْءَانَ لَرَآدُّكَ إِلَىٰ مَعَادٍ ﴾[٢] ، روى البخاري في صحيحه عن ابن عباس رضي الله عنهما أن قوله تعالى : ﴿ لَرَآدُّكَ إِلَىٰ مَعَادٍ ﴾ قال : « إلى مكة »[٣] . وروى ابن كثير في تفسيره عن الضحاك قال : « لما خرج النبي ﷺ من مكة ، فبلغ الجحفة اشتاق إلى مكة فأنزل الله عليه ﴿ إِنَّ ٱلَّذِي فَرَضَ عَلَيْكَ ٱلْقُرْءَانَ لَرَآدُّكَ إِلَىٰ مَعَادٍ ﴾ : إلى مكة »[٤] . وقد تحقق موعود الله له في رمضان من العام الثامن الهجري ، وأقر الله عينه بدخول أهلها في الإسلام .

وحين هيأ الله له العودة إليها ، ومكّنه منها دخلها دخول الفاتحين المتواضعين الشاكرين العافين[٥] ، ولم يدخلها دخول العظماء الجبارين المنتقمين . فلم يأمر باستباحتها ، أو تخريبها ، أو الإفساد فيها ، أو العبث

(١) البقرة (١٤٤) . وانظر : ابن كثير ، التفسير ١٩٢/١ ، ١٩٣ .

(٢) القصص (٨٥) .

(٣) البخاري ، الصحيح مع الفتح ٣٦٩/٨ (٤٧٧٣) .

(٤) ابن كثير ، السابق ٤٠٣/٣ . وانظر : الطبري ، التفسير١٤٤/٢٠-١٤٦ . وفي تفسير (المعاد) أقوال أخرى غير ما ذكر .

(٥) البخاري ، الصحيح مع الفتح ٦٠٦/٧ (٤٢٨١) .

المستودع الرقمي لمركز بحوث ودراسات المدينة المنورة

بمقدراتها ، أو الانتقام من أهلها . وإنما ذكر لأصحابه ﷺ أنها أبيحت له ساعة من نهار ؛ ليتمكنوا من صد عدوان المعتدين عليهم ، ولاستكمال أغراض الفتح والتطهير ، والتمكين لمظاهر الإسلام . وليس ذلك من قبيل الاستباحة التي تحدث في الحروب الحديثة من التخريب والإفساد والانتقام والعربدة والعبث بالحرمات والأنفس والأموال .

وكذلك كان أصحاب النبي ﷺ ، حين أذن الله لهم بالهجرة إلى المدينة كان ترك الوطن الذي أَلِفوه شاقاً عليهم ، يدل على ذلك أمور منها :

- كثرة الآيات الواردة بالحث على الهجرة ، والترغيب فيها ، والوعد بالأجر العظيم عليها ، ومن ذلك قوله تعالى : ﴿ وَٱلَّذِينَ هَاجَرُواْ فِى ٱللَّهِ مِنۢ بَعۡدِ مَا ظُلِمُواْ لَنُبَوِّئَنَّهُمۡ فِى ٱلدُّنۡيَا حَسَنَةً وَلَأَجۡرُ ٱلۡأَخِرَةِ أَكۡبَرُ لَوۡ كَانُواْ يَعۡلَمُونَ ﴾[1] . وقوله تعالى : ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَٱلَّذِينَ هَاجَرُواْ وَجَٰهَدُواْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ أُوْلَٰٓئِكَ يَرۡجُونَ رَحۡمَتَ ٱللَّهِ وَٱللَّهُ غَفُورٞ رَّحِيمٞ ﴾[2] . وقوله تعالى : ﴿ قُلۡ يَٰعِبَادِ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱتَّقُواْ رَبَّكُمۡ لِلَّذِينَ أَحۡسَنُواْ فِى هَٰذِهِ ٱلدُّنۡيَا حَسَنَةٞۗ وَأَرۡضُ ٱللَّهِ وَٰسِعَةٌۗ إِنَّمَا يُوَفَّى ٱلصَّٰبِرُونَ أَجۡرَهُم بِغَيۡرِ حِسَابٖ ﴾[3] . وقوله : ﴿ ثُمَّ إِنَّ رَبَّكَ لِلَّذِينَ هَاجَرُواْ مِنۢ بَعۡدِ مَا فُتِنُواْ ثُمَّ جَٰهَدُواْ وَصَبَرُوٓاْ إِنَّ رَبَّكَ مِنۢ بَعۡدِهَا لَغَفُورٞ رَّحِيمٞ ﴾[4] ، وقوله : ﴿ يَٰعِبَادِيَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِنَّ أَرۡضِي وَٰسِعَةٞ فَإِيَّٰيَ فَٱعۡبُدُونِ ﴾[5] ، وقوله : ﴿ فَٱلَّذِينَ هَاجَرُواْ وَأُخۡرِجُواْ مِن دِيَٰرِهِمۡ وَأُوذُواْ فِي سَبِيلِي وَقَٰتَلُواْ وَقُتِلُواْ لَأُكَفِّرَنَّ عَنۡهُمۡ سَيِّـَٔاتِهِمۡ وَلَأُدۡخِلَنَّهُمۡ جَنَّٰتٖ تَجۡرِي مِن تَحۡتِهَا ٱلۡأَنۡهَٰرُ ثَوَابٗا مِّنۡ

(١) النحل (٤١) .
(٢) البقرة (٢١٨) .
(٣) الزمر (١٠) .
(٤) النحل (١١٠) .
(٥) العنكبوت (٥٦) .

المستودع الرقمي لمركز بحوث ودراسات المدينة المنورة

عِندِ ٱللَّهِ وَٱللَّهُ عِندَهُۥ حُسۡنُ ٱلثَّوَابِ ﴾[١] ، وقوله : ﴿ وَمَن يُهَاجِرۡ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ يَجِدۡ فِي ٱلۡأَرۡضِ مُرَٰغَمٗا كَثِيرٗا وَسَعَةٗۚ وَمَن يَخۡرُجۡ مِنۢ بَيۡتِهِۦ مُهَاجِرًا إِلَى ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ ثُمَّ يُدۡرِكۡهُ ٱلۡمَوۡتُ فَقَدۡ وَقَعَ أَجۡرُهُۥ عَلَى ٱللَّهِۗ وَكَانَ ٱللَّهُ غَفُورٗا رَّحِيمًا ﴾[٢] .

- الآيات الواردة باللوم ، والعتاب ، والوعيد لمن تخلف وتقاعس عن الهجرة ، من ذلك قوله تعالى : ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ تَوَفَّىٰهُمُ ٱلۡمَلَٰٓئِكَةُ ظَالِمِيٓ أَنفُسِهِمۡ قَالُواْ فِيمَ كُنتُمۡۖ قَالُواْ كُنَّا مُسۡتَضۡعَفِينَ فِي ٱلۡأَرۡضِۚ قَالُوٓاْ أَلَمۡ تَكُنۡ أَرۡضُ ٱللَّهِ وَٰسِعَةٗ فَتُهَاجِرُواْ فِيهَاۚ فَأُوْلَٰٓئِكَ مَأۡوَىٰهُمۡ جَهَنَّمُۖ وَسَآءَتۡ مَصِيرًا ﴿٩٧﴾ إِلَّا ٱلۡمُسۡتَضۡعَفِينَ مِنَ ٱلرِّجَالِ وَٱلنِّسَآءِ وَٱلۡوِلۡدَٰنِ لَا يَسۡتَطِيعُونَ حِيلَةٗ وَلَا يَهۡتَدُونَ سَبِيلٗا ﴿٩٨﴾ فَأُوْلَٰٓئِكَ عَسَى ٱللَّهُ أَن يَعۡفُوَ عَنۡهُمۡۚ وَكَانَ ٱللَّهُ عَفُوّٗا غَفُورٗا ﴾[٣] ، وقوله : ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَهَاجَرُواْ وَجَٰهَدُواْ بِأَمۡوَٰلِهِمۡ وَأَنفُسِهِمۡ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ وَٱلَّذِينَ ءَاوَواْ وَّنَصَرُوٓاْ أُوْلَٰٓئِكَ بَعۡضُهُمۡ أَوۡلِيَآءُ بَعۡضٖۚ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَلَمۡ يُهَاجِرُواْ مَا لَكُم مِّن وَلَٰيَتِهِم مِّن شَيۡءٍ حَتَّىٰ يُهَاجِرُواْۚ وَإِنِ ٱسۡتَنصَرُوكُمۡ فِي ٱلدِّينِ فَعَلَيۡكُمُ ٱلنَّصۡرُ إِلَّا عَلَىٰ قَوۡمِۭ بَيۡنَكُمۡ وَبَيۡنَهُم مِّيثَٰقٞۗ وَٱللَّهُ بِمَا تَعۡمَلُونَ بَصِيرٞ ﴾[٤] .

- الآيات الواردة بضرب الأمثال بمن هجروا أوطانهم ، وخاصة الأنبياء ، وما نالهم على إثر ذلك من الأجر والثواب ؛ للتأسي بهم والاقتداء ، منهم خليل الله إبراهيم عليه السلام ، قال تعالى على لسانه : ﴿ وَقَالَ إِنِّي ذَاهِبٌ إِلَىٰ رَبِّي سَيَهۡدِينِ ﴾[٥] ، فعوّضه الله عن ذلك بعد هجرته بالذُّرِّيَّة الصالحة كما في قوله تعالى : ﴿ فَلَمَّا ٱعۡتَزَلَهُمۡ وَمَا يَعۡبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ

(١) آل عمران (١٩٥) .
(٢) النساء (١٠٠) .
(٣) النساء (٩٧-٩٩) .
(٤) الأنفال (٧٢) .
(٥) الصافات (٩٩) .

المستودع الرقمي لمركز بحوث ودراسات المدينة المنورة

وَهَبْنَا لَهُۥٓ إِسْحَٰقَ وَيَعْقُوبَ ۖ وَكُلًّا جَعَلْنَا نَبِيًّا ﴾[١] ، فهاجر عليه السلام من حرّان بلد الكفر إلى الأرض المقدسة ، ولم يعد إلى وطنه[٢] . وكذلك إسماعيل عليه السلام هاجر من الأرض المقدسة ، إلى أرض هي أقدس منها ، وهي مكة ، ثم لم يعد إلى وطنه الأول[٣] . وكذلك موسى عليه السلام هاجر ببني إسرائيل من مصر إلى الأرض المقدسة فمات في الطريق[٤] . وكذلك لوط هاجر مع إبراهيم ، قال تعالى : ﴿ فَـَٔامَنَ لَهُۥ لُوطٌ ۘ وَقَالَ إِنِّى مُهَاجِرٌ إِلَىٰ رَبِّىٓ ۖ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ﴾[٥] .

فكان من نتائج ذلك أن الذين تأخروا عن الهجرة من غير عذر ندموا على تفريطهم ، وبادروا إليها ، روى أهل التفسير أنه لما نزل قوله تعالى : ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ تَوَفَّىٰهُمُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ ظَالِمِىٓ أَنفُسِهِمْ ﴾ الآية ، بعث النبي ﷺ بها إلى مسلمي مكة ، فقال جندب بن ضمرة لبنيه : « احملوني فإني لست من المستضعفين ، ولا أني لا أهتدي الطريق ، والله لا أبيت الليلة بمكة » . فحملوه على سرير متوجهاً إلى المدينة ، وكان شيخاً كبيراً فمات في الطريق ، فسخر به قومه ، واستهزءوا به ، وقالوا : لا هو بلغ الذي يريد ، ولا هو أقام في أهله يقومون عليه ويدفن . فأنزل الله على رسوله في شأنه وأمثاله هذه الآية : ﴿ وَمَن يَخْرُجْ مِنۢ بَيْتِهِۦ مُهَاجِرًا إِلَى ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ ثُمَّ يُدْرِكْهُ ٱلْمَوْتُ فَقَدْ وَقَعَ أَجْرُهُۥ عَلَى ٱللَّهِ ۗ وَكَانَ ٱللَّهُ غَفُورًا رَّحِيمًا ﴾[٦] .

---

(١) انظر : الشنقيطي ، أضواء البيان ٦٤٤/٤ . والآية رقمها (٤٩) من سورة مريم .

(٢) الطبري ، التفسير ٥٦/١٧ ، ٥٧ . القرطبي ، التفسير ٣٠١/١٣ . ٨٧/١٥ . ابن كثير ، التفسير ١٨٤/٣ ، ١٨٥ .

(٣) ابن كثير ، البداية والنهاية ١٥٤/١-١٦٠ .

(٤) السابق ٢٦٨/١-٣١٩ .

(٥) العنكبوت (٢٦) .

(٦) الطبري ، التفسير ٢٨١/٥ . الرازي ، التفسير ١١/١١ . ابن كثير ، التفسير ٥٤٣/١ ، ٥٤٤ . ابن الجوزي ، زاد المسير ١٧٩/٢-١٨١ . وانظر في ترجمة جندب بن ضمرة : ابن حجر ، الإصابة ٢٦٣/١ (١٢٣٠) . وفيه وفي زاد المسير أسماء لأشخاص آخرين نسب إليهم هذا الخبر . والآيات رقمها (٩٧-١٠٠) من سورة النساء .

المستودع الرقمي لمركز بحوث ودراسات المدينة المنورة

إنّ الحاجة التي استدعت هذا التنويع في الخطاب بين الوعد ، والوعيد ، وضرب الأمثال ، وبهذا القدر من الآيات ، لتشير إلى حجم المشقة التي كان يكابدها المخاطبون في القيام بالهجرة .

ومفارقة الوطن عنصر ثابت في تعريف الهجرة ؛ يقول ابن الأنباري : الهجرة عند العرب من هجران الوطن والأهل والولد[١] . ويقول الشوكاني : أصل الهجرة هجر الوطن[٢] . ويقول الطاهر بن عاشور : وهذا الاسم [الهجرة] في مصطلح القرآن يدل على مفارقة الوطن[٣] .

- دعاء النبي ﷺ لأصحابه أن يتم الله لهم هجرتهم ، ولا يردهم على أعقابهم ، روى مسلم في صحيحه من حديث سعد بن أبي وقاص رضي الله عنه ، وفيه قول النبي ﷺ : « اللهم أمض لأصحابي هجرتهم ، ولا تردهم على أعقابهم »[٤] . قال ابن عبد البر في شرحه : « معناه الدعاء لهم في أن يتم لهم هجرتهم ، سالمة من آفات الرجوع إلى الوطن ، المتقرب بهجرته إلى الله عز وجل »[٥] . إن دعاء النبي ﷺ لأصحابه بذلك يشير إلى عظم المشقة التي لحقت بأصحابه نتيجة الهجرة ؛ فقد كان عليه الصلاة والسلام يتفقد أصحابه ، ويتحسس أحوالهم ، ولا يغفل عنهم ، ويقدم لهم ما يستطيع من دعم ، ودعاؤه لهم شكل من أشكال الدعم .
- المعاناة التي لحقت بأصحاب النبي ﷺ من المهاجرين ، على إثر انتقالهم إلى المدينة ، ومن صورها قول بلال رضي الله عنه ، بعد أن أصيب بحمى يثرب :

---

(١) ابن الجوزي ، السابق ٢٣٩/١ .

(٢) نيل الأوطار ١٧٧/٨ .

(٣) التحرير والتنوير ٢٤١/١٣ .

(٤) مسلم ، الصحيح ١٢٥١/٣ (١٦٢٨) . وانظر : أحمد ، المسند ١٠٩/٣ ، ١٢٣ (١٥٢٤) (١٥٤٦) بإسنادين صحيحين .

(٥) ابن عبد البر ، الاستذكار ٢٧٤/٧ .

المستودع الرقمي لمركز بحوث ودراسات المدينة المنورة

« اللهم العن عتبة بن ربيعة ، وشيبة بن ربيعة ، وأمية بن خلف كما أخرجونا من أرضنا إلى أرض الوباء » . وكان ﷺ إذا أقلعت عنه الحمى يقول شعراً ، يتغنى فيه بمكة شوقاً إليها ، ويقول :

ألا ليت شعري هل أبيتن ليلة بواد وحولي إذخر وجليل

وهل أردن يوماً مياه مجنة وهل يبدون لي شامة وطفيل

وكان أبو بكر ﷺ إذا أخذته الحمى يقول :

كل امرئ مصبح في أهله والموت أدنى من شراك نعله

وكان عامر بن فهيرة يقول :

لقد وجدت الموت قبل ذوقه والمرء يأتي حتفه من فوقه

كل امرئ مجاهد بطوقه كالثور يحمي أنفه بروقه[١]

ويروى عن عبد الله بن عمرو بن العاص قال : (أصابت الحمى الصحابة حتى جهدوا مرضاً - يعني في أول الهجرة - وصرف الله تعالى ذلك عن نبيه ﷺ ، حتى ما كانوا يصلّون إلا وهم قعود ... »[٢] .

قال ابن عبد البر في التعليق على خبر إصابة المهاجرين بحمى يثرب : « وفيه بيان ما عليه أكثر الناس من حنينهم إلى أوطانهم ، وتلهفهم على فراق بلدانهم التي كان مولدهم بها ، ومنشؤهم فيها »[٣] .

ويروى أن أبا أحمد بن جحش وهو من أوائل المهاجرين إلى المدينة كان يوم الفتح يمشي بين يدي رسول الله ﷺ ويقول :

حبذا مكة من وادي بها أهلي وعُوّادي

---

(١) ابن هشام ، السيرة ٥٨٩/١ . ابن عبد البر ، التمهيد ١٩٢/٢٢ . الزمخشري ، الفائق ٢٨٣/٢ . ابن حجر ، فتح الباري ٣٠٩/٧ . وانظر : الميداني ، مجمع الأمثال ٣٩/١ .

(٢) ابن هشام ، السابق ٥٩٠/١ . ابن كثير ، البداية والنهاية ٢٢٤/٣ . برهان الدين الحلبي ، السيرة الحلبية ٢٨١/٢ . الزرقاني ، شرح الموطأ ٢٨٧/٤ .

(٣) ابن عبد البر ، الاستذكار ٢٣٨/٨ .

المستودع الرقمي لمركز بحوث ودراسات المدينة المنورة

بهـــا أمشـــي بـــلا هـــادي بهـــا ترســـخ أوتـــادي[١]

- ولما قدم ﷺ المدينة كان من أول التدابير التي اتخذها من أجل صيانة هذا الوطن ، وحفظ أمنه ، أن عقد معاهدة[٢] مع غير المسلمين من أهلها ، وهم اليهود ، تبين الحقوق التي لهم ، والواجبات التي عليهم ، وقد نصت بعض بنود المعاهدة على أن يشترك الطرفان في الدفاع عن المدينة إذا تعرضت لعدوان خارجي[٣] .

ومع أن الكلمة العليا في المدينة ليست لليهود ، وإنما لأصحاب النبي ﷺ من الأوس والخزرج ، إلاّ أن ذلك من شأنه تعزيز أمن الجبهة الداخلية للمدينة ، وقطع الطريق على أي خطر قد يتسرب إليها من الداخل ، ووضع كل الأطراف في مواجهة مسؤولياتهم تجاه الوطن المشترك ، واعتبار أي إخلال بشيء من بنود هذه المعاهدة خيانة تستوجب العقاب الصارم والجزاء الرادع ، كما أن من شأنه أن يبعث في نفوس كل طرف الطمأنينة والارتياح تجاه الطرف الآخر ، فيأمن الجميع ، مما يساعد على التعايش السلمي بين الطرفين ، وفي هذا اعتراف ضمني من المسلمين بحق الأقلية اليهودية في المدينة في المواطنة الكريمة[٤] ، تحت إمرة المسلمين[٥] ، وللمسلمين دينهم ولليهود دينهم[٦] .

(١) الأزرقي ، أخبار مكة ١٥٤/٢ . الفاكهي ، أخبار مكة ٣٠٣/١ ، ٢٣٨/٢ ، ٢٩٣/٣ . البلاذري ، أنساب الأشراف ٢٢٧/١ . ١٩١/١١ . ابن حجر ، المطالب العالية ٣٦٦/١ ، الإصابة ٣/٧ (١٠) على اختلاف بينهم وتردد في نسبة هذا الشعر إلى أبي أحمد بن جحش أو ابن أم مكتوم .

(٢) انظر : ابن هشام ، السيرة ٥٠١/١ . محمد حميد الله ، مجموعة الوثائق السياسية للعهد النبوي ٥٧ . ظافر القاسمي ، نظام الحكم في الشريعة والتاريخ ٣١/١ . أكرم العمري ، السيرة الصحيحة ٢٨٢/١ . مهدي رزق الله أحمد ، السيرة النبوية في ضوء المصادر الأصلية ٣٠٦ .

(٣) منها : « وأن بينهم النصر على من دهم يثرب » و « وإن بينهم النصر على من حارب أهل هذه الصحيفة » و « وإن اليهود ينفقون مع المؤمنين ما داموا محاربين » .

(٤) انظر : ظافر القاسمي ، السابق١/ ٣٧ ، ٤١ ، ٤٢ . مهدي رزق الله أحمد ، السابق ٣١٦ ، ٣١٧ .

(٥) جاء فيها : « وإنه لا يخرج منه أحد إلا بإذن محمد » . وجاء أيضًا : « وإن ما كان بين أهل هذه الصحيفة من حدث أو اشتجار يخاف فساده فإن مرده إلى الله وإلى محمد رسول الله ﷺ » .

(٦) جاء فيها : « وإن يهود بني عوف أمة مع المؤمنين لليهود دينهم وللمسلمين دينهم » .

المستودع الرقمي لمركز بحوث ودراسات المدينة المنورة

وهذا إنما كان في أول الإسلام ، قبل أن يأمر النبي ﷺ بإخراج اليهود والنصارى من جزيرة العرب[١] ، فلما أمر به اختصت جزيرة العرب بذلك ، إلا ما دعت الحاجة إليه ، وبقيت على أصلها في باقي بلدان المسلمين ، حقاً مكتسباً لأهلها ، مسلمين وغير مسلمين[٢] ، يبقون فيها أهل وطن ، وتقر أراضيهم وأموالهم بأيديهم[٣] ، تحت ولاية المسلمين العامة ، وإشرافهم المباشر .

وقد مارس رسول الله ﷺ حراسة المدينة والدفاع عنها عملياً هو وأصحابه ﷺ ، ومن صور ذلك :

أنه جعل عبد الله بن عمر رضي الله عنهما في غزوة أحد ضمن حرس المدينة بعد أن استبعده من المشاركة في القتال لصغر سنه[٤] .

وفي غزوة الخندق رتَّب ﷺ حرساً على المدينة يتناوبون حراستها ، بقيادة كل من سلمة بن أسلم في مائتي رجل ، وزيد بن حارثة في ثلاثمائة رجل[٥] .

كما قام عمر بن الخطاب وعبد الرحمن بن عوف رضي الله عنهما مرة بحراسة المدينة ليلاً[٦] .

وحين فزع أهل المدينة ليلة من صوت سمعوه في أطراف المدينة خرجوا ينظرون ، فاستقبلهم رسول الله ﷺ وقد سبقهم إليه واستبرأ لهم خبره وطمأنهم قائلاً : « لن تراعوا لن تراعوا »[٧] .

---

(١) انظر : البخاري ، الصحيح مع الفتح ٣١٢/٦ (٣١٦٧ ، ٣١٦٨) . مسلم ، الصحيح ١٣٨٨/٣ (١٧٦٧) . أبو داود ، السنن ٤٢٣/٣ ، ٤٢٤ (٣٠٢٩ ، ٣٠٣٠) . الترمذي ، السنن ١٥٦/٤ (١٦٠٦ ، ١٦٠٧) . الألباني ، صحيح الجامع ١٠٦/١ (٢٣٢) .

(٢) انظر : النووي ، شرح صحيح مسلم ٩٣/١١ ، ٩٤ . ابن حجر ، فتح الباري ١٩٨/٦ .

(٣) انظر : ابن تيمية ، مجموع الفتاوى ٦٥٥/٢٨ .

(٤) ابن حجر ، الإصابة ٨٢/١ (٣١٧) .

(٥) بن سعد ، الطبقات ٦٧/٢ .

(٦) الحاكم ، المستدرك ٤ / ٤١٩ (٨١٣٦) .

(٧) ابن ماجه ، السنن ١٣٠/٢ ، ١٣١ (٢٧٩٨) . الألباني ، صحيح سنن ابن ماجه ٣٨٤/٢ (٢٢٥٤) .

المستودع الرقمي لمركز بحوث ودراسات المدينة المنورة

- حين استقر المقام بالنبي ﷺ في المدينة أخذ يدعو ربه : « اللهم حبب إلينا المدينة »[١] ، وقال ﷺ أيضاً : « اللهم بارك لنا في مدينتنا ... اللهم اجعل مع البركة بركتين » . وفي الباب أحاديث أخرى كثيرة[٢] .

فقذف الله حبها في قلوبهم ، فكانت أحب إليه من مكة ، كما جزم بذلك الزرقاني ، ونقل الجزم به عن بعضهم[٣] ، ولفرط حبه ﷺ لها كان إذا قدمها من سفر حرّك دابته مسرعاً شوقاً إليها .

خرّج البخاري في صحيحه ، من حديث أنس رضي الله عنه قال : « كان رسول الله ﷺ إذا قدم من سفر فأبصر درجات المدينة أوضع ناقته ، وإن كانت دابة حرّكها » . وفي رواية : « حركها من حبها » . وساق طريقاً أخرى للحديث وفيها : « جُدرات » بدل « درجات » . وذكر الحافظ أن معنى أوضع : أي أسرع السير . ونقل ترجيح بعضهم للفظ « جُدرات » . ثم قال : وفي الحديث دلالة على فضل المدينة ، وعلى مشروعية حب الوطن ، والحنين إليه[٤] .

وخرّج مسلم في صحيحه ، من حديث أنس رضي الله عنه في خبر رجوع النبي ﷺ وأصحابه من خيبر سنة سبع ، قال : « فانطلقنا حتى إذا رأينا جُدُر المدينة هششنا إليها ، فرفعنا مَطِيَّنَا ، ورفع رسول الله ﷺ مَطِيَّتَه »[٥] . ومعنى هششنا : أي نشطنا ، وخففنا ، وانبعثت نفوسنا إليها[٦] . ومعنى فرفعنا مطينا : أي أسرعنا بها[٧] .

---

(١) تقدم .

(٢) مسلم ، الصحيح ١٠٠١/٢(١٣٧٤) . صالح الرفاعي ، الأحاديث الواردة في فضائل المدينة ٢١٥-٢٣٢ . ومواضع أخرى .

(٣) الزرقاني ، شرح الموطأ ٢٨٦/٤ .

(٤) البخاري ، الصحيح مع الفتح ٧٢٦/٣ ، ٧٢٧ (١٨٠٢) .

(٥) مسلم ، السابق ١٠٤٧/٢ ، ١٠٤٨ (١٣٦٥) .

(٦) النووي ، شرح صحيح مسلم ٢٢٦/٩ .

(٧) ابن الأثير ، النهاية ٢٤٤/٢ (رَفَعَ) .

المستودع الرقمي لمركز بحوث ودراسات المدينة المنورة

وكان ﷺ إذا غادرها مسافراً أسرع في العودة إليها ، ولهذا ترجم الإمام البخاري لأحد أبواب كتاب الجهاد (باب السرعة في السير) ، وعلّق عليه الحافظ بقوله : أي في الرجوع إلى الوطن[١] . وذكر تحته حديث أبي حميد الساعدي ، في رجوعهم من تبوك ، وفيه قول النبي ﷺ : « إني متعجل إلى المدينة ، فمن أراد منكم أن يتعجل معي فليتعجل » . فلما أشرف على المدينة قال : « هذه طابة » . فلما رأى أُحداً قال : « هذا جبل يحبنا ونحبه ... »[٢] . قال الحافظ في شرحه : أي إني سالك الطريق القريبة ، فمن أراد فليأت معي ، يعني ممن له اقتدار على ذلك ، دون بقية الجيش[٣] . ثم ذكر للحديث طريقاً آخر ، ورد فيها التصريح باسم الطريق الذي سلكه النبي ﷺ ، وغرضه من اتباعه ، وهي من طريق سليمان بن بلال ، وأوله : « أقبلنا مع رسول الله ﷺ حتى إذا دنا من المدينة أخذ طريق غُراب[٤] ؛ لأنها أقرب إلى المدينة ، وترك الأخرى »[٥] . ثم ساق الحديث بطوله .

وكان عمر بن الخطاب رضي الله عنه لفرط حبه المدينة يدعو الله أن يجعل موته فيها ، روى البخاري عن عمر رضي الله عنه ، أنه كان يقول : « اللهم ارزقني شهادة في سبيلك ، واجعل موتي في بلد رسولك ﷺ »[٦] .

وقد بقي ﷺ وفياً لهذه المدينة ، حفياً بها ، وبأهلها ، حتى بعد أن فتحت مكة ، ودخل أهلها في الإسلام ، لم ينتقل للإقامة بها ، وبقي في المدينة ،

(١) البخاري ، الصحيح مع الفتح ١٦١/٦ .

(٢) السابق ٤٠٢/٣ (١٤٨١) ، ١٦١/٦ .

(٣) ابن حجر ، فتح الباري ٤٠٦/٣ .

(٤) غراب : جبل أسود يقع غرب المدينة ، ويبعد عنها حوالي سبعة أكيال ، يمر به طريق الشام الرئيسي ، ويعرف اليوم بجبل (حبشي) . انظر : البلادي ، معجم المعالم الجغرافية ٢٢٣ . والطريق المار بهذا الجبل الذي سلكه النبي ﷺ سيكون حتما قبله بمسافة قد تطول وقد تقصر ، والله أعلم .

(٥) ابن حجر ، السابق ٤٠٥/٣ ، ٤٠٦ .

(٦) البخاري ، السابق ١١٩/٤ (١٨٩٠) .

المستودع الرقمي لمركز بحوث ودراسات المدينة المنورة

وما زال لسانه يلهج بذكر فضائلها ، والثناء على أهلها ، وما توفي ﷺ إلاّ وقد حرّمها وبيّن حدود حرمها اقتداء بفعل إبراهيم عليه السلام حين دعا لمكة قائلاً : ﴿ رَبِّ ٱجْعَلْ هَٰذَا بَلَدًا ءَامِنًا ﴾[١] فقال عليه الصلاة والسلام : « المدينة حرم مابين عير إلى ثور ، من أحدث فيها حدثاً أو آوى محدثاً فعليه لعنة الله والملائكة والناس أجمعين ، لا يقبل الله منه صرفاً ولا عدلاً »[٢] . وقال : « إن إبراهيم حرم مكة وإني أحرم المدينة »[٣] .

ففي حنين التي أعقبت فتح مكة بقليل ظن أصحابه ﷺ من الأنصار أنه ربما سيترك المدينة قريباً ، وينتقل للإقامة بين أهله وقومه في مكة ، بعد أن رأوا حفاوته بقومه على إثر دخولهم في الإسلام ، وإغداقه الأعطيات عليهم[٤] ، فجمعهم ﷺ وخاطبهم مثنياً عليهم ، معدداً فضائلهم ، ذاكراً مآثرهم ، معترفاً لهم بالسبق ، والجميل ، والمعروف ، والإحسان ، قائلاً : « أما والله لو شئتم لقلتم ، فلصدقتم وصدِّقتم : أتيتنا مكذباً فصدقناك ، ومخذولاً فنصرناك ، وطريداً فآويناك ، وعائلاً فأغنيناك ... أفلا ترضون يا معشر الأنصار أن يذهب الناس بالشاة والبعير ، وترجعون برسول الله إلى رحالكم ؟ فوالذي نفس محمد بيده لولا الهجرة لكنت إمرأً من الأنصار ، ولو سلك الناس شعباً وسلكت الأنصار شعباً لسلكت شعب الأنصار ، اللهم ارحم الأنصار ، وأبناء الأنصار ، وأبناء أبناء الأنصار »[٥] .

---

(١) البقرة (١٢٦) .

(٢) الألباني ، إرواء الغليل ٢٥٠/٤(١٠٥٨) وصححه .

(٣) السابق ٢٥٠/٤ ، ٢٥١ .

(٤) انظر : ابن حجر ، فتح الباري ٦٤٦/٧ .

(٥) البخاري ، الصحيح مع الفتح ٦٤٤/٧ (٤٣٣٠) . مسلم ، الصحيح ٧٣٣/٢-٧٣٩ (١٠٥٩-١٠٦٢) . أحمد ، المسند ٢٥٣/١٨-٢٥٥ (١١٧٣٠) بإسناده حسن ، واللفظ له .

المستودع الرقمي لمركز بحوث ودراسات المدينة المنورة

وكان من آخر ما أوصى به المسلمين في مرض موته ﷺ قوله : « أوصيكم بالأنصار ، فإنهم كَرِشي وعيبتي ، وقد قضوا الذي عليهم ، وبقي الذي لهم ، فاقبلوا من محسنهم ، وتجاوزوا عن مسيئهم »[١] .

وعدم انتقال النبي ﷺ أو أحدٌ من أصحابه إلى مكة للإقامة بها بعد فتحها يعود إلى أن انتقالهم إنما كان استجابة لأمر شرعيّ[٢] ، فكذلك العودة لا تكون إلا بأمر شرعي مثله ، وإلاَّ عُدَّ ذلك مخالفة صريحة للأمر الأول .

ترجم البخاري لأحد أبواب كتاب (مناقب الأنصار) بقوله : (باب إقامة المهاجر بمكة بعد قضاء نسكه) وساق تحته حديثاً من طريق العلاء بن الحضرمي ، قال : قال رسول الله ﷺ : « ثلاث للمهاجر بعد الصّدَرَ »[٣] وعرّف الحافظ : الصَّدَر بأنه الرجوع من مِنى (يعني أيام الحج) ، وقال في شرح الحديث : الإقامة بمكة كانت حراماً على من هاجر منها قبل الفتح ، لكن أبيح لمن قصدها بحج أو عمرة أن يقيم بعد قضاء نسكه ثلاثة أيام ، لا يزيد عليها . ونقل الحافظ كلام النووي ، وفيه : « إن الذين هاجروا يحرم عليهم استيطان مكة » . ثم نقل الحافظ عن عياض أنه قول الجمهور . ثم قال عياض : « وأجازه لهم جماعة يعني بعد الفتح » . وقال أيضاً : « واتفق الجميع على أن الهجرة قبل الفتح كانت واجبة عليهم ، وأن سكنى المدينة كان واجباً لنصرة النبي ﷺ ومواساته بالنفس ، وأما غير المهاجرين فيجوز لهم سكنى أي بلد أرادوا ، سواء مكة أو غيرها بالاتفاق » . ثم قال الحافظ ابن حجر : « ويستثنى من ذلك من أذن له النبي ﷺ بالإقامة في غير المدينة »[٤] .

---

(١) البخاري ، السابق ١٥١/٧ (٣٧٩٩) . وقال الحافظ ابن حجر في (١٥٢) : كَرِشي وعيبتي : أي بطانتي وخاصتي .

(٢) ابن حجر ، فتح الباري ٢٦٩/٧ . أكرم العمري ، السيرة الصحيحة ٢٠١/١ .

(٣) البخاري ، الصحيح مع الفتح ٣١٣/٧ (٣٩٣٣) .

(٤) ابن حجر ، السابق ٣١٣/٧ ، ٣١٤ .

المستودع الرقمي لمركز بحوث ودراسات المدينة المنورة

وترجم مسلم في صحيحه لأحد أبواب كتاب الإمارة بقوله : « باب تحريم رجوع المهاجر إلى استيطان وطنه »[١] .

وقال ابن عبد البر : « ولم تكن الهجرة في ترك الوطن وتحريم الرجوع إليه على الأبد إلا على أهل مكة خاصة ، الذين آمنوا به من أهلها واتبعوه ؛ ليتم لهم بالهجرة الغاية من الفضل الذي سبق لهم ، فعليهم خاصة افترضت الهجرة المفترض فيها البقاء مع النبي ﷺ حيث استقر ، والتحول معه حيث تحول ؛ لنصرته ، ومؤازرته ، وصحبته ، والحفظ لما يشرعه ، والتبليغ عنه ، ولم يُرخّص لواحدٍ منهم في الرجوع إلى الوطن ، وترك رسول الله ﷺ »[٢] .

وقال : « الهجرة كانت عليهم باقية إلى الممات ، وهم الذين أطلق عليهم المهاجرون ، ومدحوا بذلك دون غيرهم »[٣] .

قلت : ولهذا لم يؤثر عن أحد من أصحاب النبي ﷺ الانتقال إلى مكة للإقامة بها ، بل كانوا يستعيذون بالله أن يعودوا كالأعراب بعد هجرتهم ؛ لأن الأعراب لم يُتَعَبّدُوا بالهجرة التي كان يحرم بها على المهاجر الرجوع إلى وطنه[٤] ، بل كانوا يكرهون الموت فيها عند مرورهم بها لحاجة ، حتى عدّوا من مات بها بعد الهجرة عنها (بائسًا) .

روى البخاري في صحيحه من حديث سعد بن أبي وقاص رضي الله عنه قال : « جاء النبي ﷺ يعودني وأنا بمكة » - وهو يكره أن يموت بالأرض التي

(١) مسلم ، الصحيح ١٤٨٦/٣ .

(٢) ابن عبد البر ، الاستذكار ٢٧٥/٧ .

(٣) السابق .

(٤) السابق ٢٧٥/٧ .

المستودع الرقمي لمركز بحوث ودراسات المدينة المنورة

هاجر منها – قال : « يرحم الله ابن عفراء ... »[١] . ولمسلم : « خشيت أن أموت بالأرض التي هاجرت منها كما مات سعد بن خولة »[٢] . وللنسائي من طريق جرير بن يزيد ، عن عامر بن سعد : « لكن البائس سعد بن خولة مات في الأرض التي هاجر منها »[٣] . وله من طريق بكير بن مسمار ، عن عامر بن سعد : « فقال سعد : يا رسول الله ، أموت بالأرض التي هاجرت منها ؟ » قال : « لا ، إن شاء الله تعالى »[٤] . قال الحافظ ابن حجر : « رثى النبي ﷺ لسعد بن خولة أن مات بمكة »[٥] . وقال : « والمرثِيّة تعديد محاسن الميت ، والمراد هنا التوجّع له لكونه مات في البلد التي هاجر منها »[٦] . وقال ابن عبد البر : « قال [سعد] ذلك تحزناً وإشفاقاً من بقائه في موضع قد هجره لله ولرسوله »[٧] .

وسعد بن خولة رضي الله عنه مات بمكة ، في حجة الوداع ، على الصحيح ، كما جزم بذلك الحافظ ابن حجر[٨] ، وهذا يعني أن موته كان بعد فتح مكة بعامين ، مما يدل على أن أصحاب النبي ﷺ من المهاجرين كانوا يكرهون العودة إلى مكة والإقامة بها ، حتى هذا الوقت المتأخر من عمر الإسلام الذي شهد عز ونصر الإسلام ، ورغم الفسحة التي

(١) البخاري ، الصحيح مع الفتح ٤٢٧/٥ (٢٧٤٢) .

(٢) مسلم ، الصحيح ١٢٥٣/٣ (١٦٢٨/٨) .

(٣) انظر : ابن حجر ، فتح الباري ٤٢٩/٥ ، ولم أقف عليه عند النسائي .

(٤) النسائي ، السنن الكبرى ١٠٣/٤ (٦٤٥٧/٥) . والسابق .

(٥) ابن حجر ، السابق ٣١٣/٧ .

(٦) السابق ٣١٦ .

(٧) ابن عبد البر ، الاستذكار ٢٧٤/٧ .

(٨) ابن حجر ، فتح الباري ٤٢٩/٥ .

المستودع الرقمي لمركز بحوث ودراسات المدينة المنورة

حصلت لهم بعد الفتح ، ولا زالوا يحرصون على ملازمة النبي ﷺ والبقاء إلى جانبه في المدينة .

روى ابن سعد من طريق الواقدي ، قال : « لا نعلم أحداً من المهاجرين من أهل بدر رجع إلى مكة ، يعني بعد وفاة النبي ﷺ ، فنزلها ، غير أبي سبرة ، فإنه رجع إلى مكة بعد وفاة النبي ﷺ فنزلها ، فكره ذلك له المسلمون ، وولده ينكرون ذلك ويدفعونه ، أن يكون رجع إلى مكة فنزلها بعد أن هاجر منها ، ويغضبون من ذكر ذلك »[١] .

قلت : ولا يشكل على هذا خروج عدد من الصحابة بعد وفاة النبي ﷺ وسكناهم بلاداً غير مكة ؛ فإن المنع إنما كان خاصاً بحياته ﷺ[٢] ، ومن جهة أخرى فإن خروجهم إنما كان لمقاصد عظيمة : كنشر العلم ، وفتح البلاد ، والمرابطة في الجهاد ، وقتال الكفار ، وهم مع ذلك على اعتقاد فضل المدينة ، وفضل سكناها ، وليس كراهة فيها ورغبة عنها[٣] .

أما سائر الناس من غير أهل مكة فقد كانت الهجرة إلى المدينة في حقهم مستحبة وليست واجبة ، ثم أغلق باب الاستحباب بعد الخندق حين قال النبي ﷺ : « الآن نغزوهم ولا يغزوننا »[٤] ، وبعد أن ضاقت المدينة بأهلها ، فجعل رسول الله ﷺ هجرتهم في رحالهم[٥] ، ثم أغلق باب الهجرة

(١) ابن سعد ، الطبقات ٤٤٣/٥ .

(٢) ابن حجر ، فتح الباري ٣١٨/١٣ .

(٣) السابق ٢١٣/١٣ .

(٤)البخاري ، الصحيح مع الفتح ٤٦٧/٧ (٤١٠٩ ، ٤١١٠) .

(٥) ابن سعد ، الطبقات ٢٩١/١ . ابن حبان ، الثقات ٢٦١/١ . ابن كثير ، البداية والنهاية ٤١/٥ . ابن الجوزي ، المنتظم ٢١٨/٣ .

المستودع الرقمي لمركز بحوث ودراسات المدينة المنورة

نهائياً بعد فتح مكة حين قال النبي ﷺ : « لا هجرة بعد الفتح ولكن جهاد ونية »[١] ، وبقي فرض الجهاد والنية على من قام به ، أو نزل به عدو[٢] . ويبقى للضرورة أحكام ذكرها أهل العلم مفصلة في كتب الفقه والحديث سنعرض معظمها مختصرة في صفحات تالية[٣] .

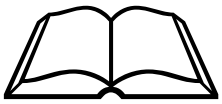

(١) البخاري ، الصحيح مع الفتح ٦/٦ (٢٧٨٣) . مسلم ، الصحيح ٩٨٦/٢ (١٣٥٣) .

(٢) أكرم العمري ، السيرة الصحيحة ٢٣٨/١ . وانظر تفصيلا أكثر لهذا الموضوع في : ابن حجر ، فتح الباري ٥٧/٤ . ٤٦/٦ ، ٢٢٠ . ٢٧٠/٧ ، ٢٧١ . الشوكاني ، نيل الأوطار ١٧٧/٨-١٧٩ .

(٣) وهناك أحاديث تروى عن النبي ﷺ في حب الوطن ولا تصح ، منها حديث « حب الوطن من الإيمان » قال السخاوي في المقاصد الحسنة ٢٩٧ : « لم أقف عليه ومعناه صحيح » . وقال الألباني في السلسلة الضعيفة ٥٥/١ (٣٦) : « موضوع » . وانظر تخريجاً موسعاً مع شرح وتوجيه للحديث في : زيد الزيد ، حب الوطن من منظور شرعي ص٥٢-٥٥ . ومنها حديث « دع القلوب تقر » وفي لفظ « حسبك يا أصيل لا تحزنا » رواه : الأزرقي في أخبار مكة ١٥٥/٢ . الخطابي في غريب الحديث ٢٧٨/١ . ابن حجر في الإصابة ٥٣/١ (٢١٣) وغيرهم ، وهو حديث ضعيف ، أورده : السخاوي في المقاصد الحسنة ٢٩٨ . العجلوني في كشف الخفاء ٤١٤/١ (١١٠٢) . علي الحلبي وآخرون في موسوعة الأحاديث والآثار الضعيفة والموضوعة ٤٠٠/٦ (١٥٦٤٦) . ومنها حديث « الخروج عن الوطن عقوبة » ذكره : الجاحظ في المحاسن والأضداد ١٢٤ ، إبراهيم بن محمد البيهقي في المحاسن والمساوىء ٣٠١ ، كلاهما بدون إسناد . ولم أقف عليه عند غيرهما من المتقدمين ، ولا من المتأخرين المعنيين بالحكم على الأحاديث صحةً وضعفاً . وأحسب أن في الأحاديث الصحيحة الواردة في صلب البحث غنية عن الضعيفة والموضوعة وإن كان معناها صحيحاً .

المستودع الرقمي لمركز بحوث ودراسات المدينة المنورة